

الجانب الدعوي في السيرة النبوية

تأليف

الدكتور محمد بن لطفي لصبغ

الكتاب الإسلامي

شبكة
الألوكة
www.alukah.net

الجانب الدعوي في السيرة النبوية





الجانب الدعوي في السيرة النبوية

تأليف
الدكتور محمد بن لطفى ألبسغ

المكتب الإسلامي



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلِّ فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ؕ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسَامُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ؕ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ؕ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد،

فهذا الكتاب يبحث في الجانب الدعوي في سيرة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام وكيف كان نبينا الكريم ﷺ يدعو أصحابه ويوجههم إلى قيم الإسلام والالتزام به.



وقد كان سيدي الوالد رحمه الله وغفر له وأنزله منازل
الصديقين قد أعدَّ هذا الكتاب للطبع من سنوات، ولم يُفسح له في
الأجل ليخرجه في حياته. فأكملت مراجعة الكتاب وتجهيزه للطباعة.
نسأل أن يلهمنا رشدنا وأن ينفعنا بما علمنا وآخر دعوانا أن
الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً.

كتبه لطفي بن محمد الصبّاغ

الرياض في ٢٥ شعبان ١٤٤١ هـ

الموافق ١٨ نيسان ٢٠٢٠ م



مقدمة المؤلف

إِنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإنَّ جانب الدعوة في السيرة النبوية موضوع جدير أن يعرض على الناس ولا سيما الدعوة.

إنَّ جانب الدعوة في السيرة يشمل السيرة كلها، فرسول الله ﷺ شاهدٌ ومبشِّرٌ ونذيرٌ وداعٌ إلى الله، بل هو سيد الدعوة. يقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذِنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

ولذا فلن أعرض في هذه الكلمة لمواقف الرسول ﷺ الدعوية أسردها سرداً كاملاً؛ لأنَّ ذلك يقتضي عرض السيرة النبوية عرضاً تاماً من أولها إلى آخرها .. ولكنني سأعرض إلى إمكانية استفادة الداعية من السيرة، وإمكان استفادة المدعوين من السيرة.

والموضوع - حتى بهذه الحدود - واسع جداً، من أجل ذلك فسأتى ببعض الأفكار والخواطر حول هذا الموضوع.



وأحب أن أذكر في هذه المقدمة صلتني القديمة بالسيرة النبوية .. إنَّ السيرة ليست غريبة عليَّ .. فمنذ أيام الطفولة المبكرة كانت لي صلة بأحداث السيرة عن طريق السماع .. وما زلت أذكر تلك الجلسات المحببة التي كنا نتحلق فيها حول الوالدة - رحمها الله - نصغي إلى حديثها المحبب وهي تقص علينا قصصاً رائعةً من حياة النبيِّ الكريم ﷺ .. تقصها علينا بطريقة جذابة وبأسلوب مفهوم، ولقد كانت تلك القصص أحب شيء إلينا، وكانت والدتي تحسن الحديث، وكانت حافظة لمعظم أحداث السيرة وغزوات النبيِّ ﷺ ترويه عن والدها الذي كان تاجراً وطالب علم رحمها الله رحمة واسعة وجزاها عنا خيراً.

ورحمَ الله سيدي الوالد الذي كان يجمعنا بعدما جاوزنا مرحلة الطفولة ودخلنا مرحلة الفتوة والشباب، كان يجمعنا في السهرة على قراءة السيرة، وغالباً ما كان يعهد إليَّ بقراءة الجزء المخصص لتلك الجلسة، وكان لذلك التصرف أثر كبير في نفسي وفي تكويني العلمي. رحمه الله رحمةً واسعةً وجزاه عنا خيراً.

ولما بدأت بطلب العلم كان من المواد التي درستها على المشايخ (السيرة النبوية) فقد قرأت على الشيخ كتاباً كاملاً في السيرة، وكنا في الوقت ذاته نقرأ موضوعات من السيرة في الكتب الموسعة ك"السيرة الحلبية"، و"سيرة ابن هشام"، و"البداية والنهاية" لابن كثير وغيرها.



وكنت أعتمد على السيرة النبوية في خطب الجمعة، وفي دروسي في المساجد، ولما رزقني الله أولاداً من بنين وبنات كنت أعقد لهم درساً يومياً، وكان عماد هذا الدرس السيرة النبوية، وقد تعلق الأولاد بهذا الدرس تعلقاً شديداً، حتى كانت عقوبة الذي يذنب من الأولاد حرمانه من حضور الدرس، فكان الولد المحروم يبكي ويوسط أمه ويتعهد بالتوبة، وبأن لا يعود إلى هذا الذنب مقابل أن يسمح له بالحضور.

وكان هذا الدرس نافعاً للأولاد أعظم النفع والله الحمد والمنّة. وبقيت أنس بالسيرة فأفزع إليها، أقرؤها بيني وبين نفسي، وأستشهد بأحداثها في أحاديثي وكتاباتي.

أسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

كتبه محمد بن لطفي الصبّاغ

الرياض في ١٧ صفر ١٤٢٩ هـ

الموافق ٢٤ شباط ٢٠٠٨ م





الدعوة في السيرة النبوية

إنَّ الحديث عن السيرة في مجال الدعوة يمكن أن يكون في جانبين:

- جانب الدعاة.

- وجانب المدعوين.

أما الدعاة: فإن لدراسة السيرة واستحضار أحداثها من قبل الدعاة فوائد عدة، تعود عليهم بالتوفيق والسداد في عملهم وبالخير العميم.

(١) إنها تملأ صدورهم بالأمل الواسع عندما يلاقون المصاعب والمتاعب والعقبات، وتنأى بهم عن اليأس، وتدفعهم إلى العمل، وذلك عندما يتذكرون أنَّ رسول الله ﷺ واجه الدنيا التي كانت تموج بالشرك والظلم والعدوان، واجهها بعمل وصبر ورفق وحزم وأمل واسع .. فدانت له الدنيا، وخضع لسلطانه الوجود، ولم يمض على وفاته ﷺ مائة عام حتى كانت دعوته قد عمّت الكون المعمور، وأصبحت كلمة التوحيد والتكبير تعلو المآذن من حدود فرنسا إلى حدود الصين: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله.

(٢) إنها تبين لهم المراحل التي ينبغي أن يسلكوها في الدعوة متأسين بالنبي ﷺ، فلقد أخذت دعوته ﷺ في المدينة منحنى يختلف عن المنحنى الذي كانت عليه الدعوة في مكة.



(٣) إنها توضح الأوليات ومراتب الواجبات والمحرمات، وتحدد لهم الأمور التي يبدؤون بها، وهي الأمور المتصلة بالعقيدة، فلقد ظل معظم اهتمام الرسول ﷺ في مكة بالتوحيد ونبذ الشرك.

(٤) إنها تبين للدعاة الصفات الأساسية المهمة التي ينبغي أن يتصفوا بها وترغبهم بذلك. ومن أهم هذه الصفات: العلم، والتخطيط، والتدرج، والتلطف والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والحلم، والشعور بالمسؤولية، والصبر والثبات، والالتزام بما يدعو الناس إليه، والزهد والقناعة، والجرأة في قول الحق وغير ذلك من الصفات مما سنبينه في هذا البحث إن شاء الله.

وأما بالنسبة إلى جانب المدعويين فهناك الأفكار الآتية:

(١) إنَّ في سماعهم لأحداث سيرة النبي ﷺ تنمية لحب النبي ﷺ، وحبه من أسس الإيثار لقوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب إليه من والده وولده». (١)

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين». (٢)

ومحبة النبي ﷺ أمر قائم في نفوس الناس على الرغم من وقوعهم

(١) رواه البخاري (١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، وأحمد ٣/١٧٧، والنسائي (٥٠١٣)، وابن ماجه (٦٧).



- في انحراف أحياناً، وهذا يجعل إصغاءهم ومتابعتهم للمتحدث أشدّ وأقوى وانتفاعهم أعظم.
- (٢) في سماعهم أحداث السيرة إعانة لهم على التأسي بالرسول ﷺ والافتداء به.
- (٣) في سماعهم أحداث السيرة إعجاب بشخصية النبي ﷺ وتأثر بالموعة.
- (٤) في سماعهم أحداث السيرة إقناع للمسلمين بأن أحكام الدين التي جاء بها الرسول العظيم ﷺ حلت للناس مشكلاتهم.
- (٥) السيرة النبوية تمثل التطبيق العملي لمبادئ الإسلام، وتجعل الأمور المجردة أشياء محسوسة ظاهرة ووقائع في عالم الحس، فهي تجسيد للمعاني الكريمة التي يريد الدعاة أن يقرروها للناس.
- (٦) السيرة النبوية قصة حياة أعظم إنسان عرفته الإنسانية ﷺ، ومن الطبائع البشرية أن السامع للقصة عندما يعجب ببطل القصة يحاول تقليده، والقصة شيء تميل إليه النفس، وقصة حياة النبي ﷺ الذي غرس حبه في قلوب الناس لها تأثير وأي تأثير.
- وسنورد إن شاء الله فصلاً عن أهمية القصة في الدعوة.
- إن السيرة النبوية سجلت أحداث حياة أعظم شخصية عرفها البشر، وأكرم رسول من رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين.



ومن حسن حظنا وحظ الإنسانية أن نُقلت لنا أحداث حياته ﷺ على وجه لا نعرفه في حياة إنسان آخر.

وهو ﷺ الأسوة الحسنة، والقدوة الفاضلة للمؤمنين. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْأَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وما أشدّ حاجة المسلمين اليوم إلى أن يتذكروا ما جاء في سيرته ﷺ ليقتدوا به ويعملوا بما جاءهم به من عند الله من الهدى والحق والخير، فواقعهم واقع مؤلم، وكيد الكفرة ضدهم متعاضم في كل مكان. وسيكون حديثنا عن الجانب الدعوي في السيرة النبوية الشريفة إن شاء الله، وهذا يدعوننا إلى أن نحدد المراد من الدعوة لغة واصطلاحاً.

الدعوة لغة:

قال ابن فارس في "المقاييس":

[الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد، وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام منك. تقول: دعوت أدعو دعاءً].

وقال الفيومي في "المصباح المنير":

[دعوت الله أدعوه دعاءً: ابتهلتُ إليه بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير، ودعوت زيداً: ناديته وطلبت إقباله. ودعا المؤذن الناس إلى الصلاة، فهو داعي الله. والجمع دعاة وداعون.. والنبى داعي الخلق إلى التوحيد].



وقال الراغب في "المفردات":

[والدعاء إلى الشيء: الحثُّ على قصده .. قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ ﴾ [يونس: ٢٥] وقال: ﴿ وَيَقْوِمَ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونَنِي إِلَىٰ النَّارِ ۗ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ [غافر: ٤١-٤٢].

والدعاء عند علماء البلاغة نوع من أنواع الطلب، وذلك عندما يكون من الأدنى إلى الأعلى، وأما الأمر فهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء أي يكون من الأعلى إلى الأدنى، وإذا كان من المثل إلى مثله فهو الالتماس.

[إنَّ موضوع الدعوة إلى الله موضوع يحتاج إلى أن يعالج من قبل رجالات كبار، يملكون طاقات ضخمة ومواهب فذة، ومعرفة واسعة .. ولا يجوز أن تقابل الحركات الهدامة بروح اللامبالاة التي صار إليها بعض الدعاة بسبب الإحباط الذي أصيبوا به نتيجة للنكبات المتوالية التي وجَّهت إلى كثير من الدعاة في عدد من البلاد.

لا بُدَّ من ظهور دراسات عميقة وافية تعالج الواقع الذي يحياه المسلمون، وأوضاع مجتمعاتهم التي تتبدل حيناً بعد حين، إنَّ معرفة العصر وتياراته والواقع الاجتماعي والسياسي القائم، والتخطيط وفق هذه المعرفة ضرورة من ضرورات الدعوة التي تطمح إلى النجاح].



الدعوة في الاصطلاح:

الدعوة في الاصطلاح: دعوة الناس إلى الالتزام بشرع الله. والدخول في دينه. وتكون بالقول والكتابة والمعاملة الحسنة والقُدوة.

والدعوة إلى الإسلام تعتمد على المصدرين الأساسيين في الشريعة وهما الكتاب والسنة.

والكتاب: هو القرآن الكريم، وهو كلام الله المعجز ووحيه المنزل على عبده ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ المكتوب في المصاحف والمنقول بالتواتر والمتعبد بتلاوته.

والسنة: هي أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته وأوصافه وهي كلها أمور متصلة بحياة النبي الكريم ﷺ.

ولذا فلا بدّ للداعية من أن يجدّ في إعداد نفسه بدراسة أمور كثيرة وأخذ نفسه بسلوك مستقيم.

لا بدّ له من دراسة ما يتصل بالقرآن الكريم والاطلاع على تفسيره ومعرفة علومه. ودراسة ما يتصل بالحديث الشريف وبالفقه وأصوله.

ومن أهم الأمور التي تعينه على عمله في الدعوة السيرة النبوية، وكذلك معرفة جيدة باللغة العربية.



وواضح أن مضمون الدعوة الإسلامية أمور متعددة من أهمها العقيدة السليمة، والعبادات، والحض على الوقوف عند حدود الله في كل أمر من المعاملات الخاصة والعامة، والتخلق بالأخلاق الفاضلة.

وللدعوة وسائل وآداب، فالكلمة المقولة والمكتوبة من أهم وسائل إيصال الدعوة إلى الناس، ثم السلوك والمعاملة الحسنة قال الله تعالى:

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ويقول الرسول ﷺ: «بلغوا عني ولو آية». (١) ويقول ﷺ مخاطباً علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «... ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم». (٢).

إنّ هذه النصوص وأمثالها تغري المسلم بالقيام بالدعوة؛ فالدعاة هم المفلحون وأجرهم عظيم، والذين يعرفون آية واحدة كثيرون، وها هو رسول الله ﷺ يدعوهم للتبليغ.

المهم أن يكون ذلك بالرفق واللين، والتيسير والتبشير، وبالْحِكْمَةِ والموعظة الحسنة.. وعلى الداعية أن يتخذ الأساليب المؤثرة الجذابة التي تتناسب مع عصره ومع مستوى المخاطبين، وينبغي أن يعدد طرق

(١) رواه البخاري (٣٤٦١).

(٢) رواه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).



العرض وأن لا يجمد على طريقة واحدة لا يحميد عنها، إنّ عليه أن يلجأ إلى الموازنة والمقارنة .. يوازن بين ذاك المستوى الرفيع الذي توحى به أحداث السيرة وبين المستوى القائم، وعليه في أحيان أخرى أن يلجأ إلى بيان انطباق الحادثة المروية على الواقع الذي يحياه السامعون، ويحسن أن يورد الحادثة قصة يعرضها بأسلوب واضح، وبلغة غير معقدة، ويجتنب الغموض والإغراب، ويحلل ما فيها من مواقف، ويعلق عليها تعليقات تتصل بواقع الناس.



الدعوة والتربية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة:

هذه مصطلحات إسلامية متقاربة المعنى، وقد يتداخل مدلول بعضها بالمصطلحات الأخرى، ويحسن توضيح المراد منها وبيان الفروق بينها، فمن هذه المصطلحات (التربية) و(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) و(النصيحة)، فإذا نظرنا إلى المراد من (الدعوة) و(التربية) وجدنا أن معنى كل منهما يعتمد على معنى المصطلح الآخر.

فالدعوة أعم، لأن الداعية يدعو الناس جميعاً إلى الحق والخير والهدى، فمنهم من يستجيب ويقبل، ومنهم من يعرض.

وقد مثل الرسول ﷺ حالة المدعوين مع الداعي بحالة الأرض مع المطر، فمن أنواع الأرض نوع يتلقى الماء ويُنبت الكلاً والشجر، ومنها أرض قيعان تبتلع الماء ولا تنبت شجراً ولا كلاً، ومنها نوع يتجمع الماء فيها فينتفع الناس منها وهي لا تنتفع.

عن أبي موسى رضي عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً: فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير. وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١).

(١) رواه البخاري (٢٢)، ومسلم (٢٢٨٠).



ومن هنا كان مصطلح (أمة الدعوة) ويدخل في هذا المصطلح كل من وجهت إليه دعوة الإسلام، فمن استجاب كان من (أمة الإجابة). إذن الدعوة تكون أولاً، فمن استجاب إليك وجب عليك أن تتعهد بالتربية والتعليم والرعاية والتقويم. والتربية على الخلق القويم دعوة ولكن تكون بعد الاستجابة. وهاتان الكلمتان بالنسبة إلى المجتمع النبوي في المدينة كانتا متداخلتين.

فالنبي ﷺ يدعو أصحابه إلى الخير، ويتعهدهم بالتربية والرعاية.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو بين المسلمين، قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وأما النصيحة فمعناها قريب من الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة». قلنا: لمن؟ يا رسول الله. قال ﷺ: «الله وكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١).

فقد جعل ﷺ الدين هو النصيحة، ثم بين عموم النصيحة وشمولها، وهي من مقتضيات الأخوة الصادقة التي تجعل المسلم إذا رأى العيب في

(١) رواه مسلم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي (١٥٦/٧)، والترمذي (١٩٢٦).



أخيه وضحه له وكشفه له ليركه، وهذا ما دل عليه الحديث:
«المؤمن مرآة المؤمن»^(١).

وجعل رسول الله ﷺ النصح لكل مسلم أمراً داخلياً في البيعة
مقروناً بالصلاة والزكاة كما جاء في حديث جرير بن عبد الله الذي
يقول فيه: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة
والنصح لكل مسلم^(٢).

ويبدو - والله أعلم - أن مصطلح الدعوة أعم هذه الألفاظ،
وأنها جميعاً من الدعوة.

(١) رواه أبو داود (٤٩١٨)، والترمذي (١٩٢٩).

(٢) رواه البخاري (٥٧) ومسلم (٥٦) وأبو داود (٤٩٤٥).



القصة وسيلة من أهم وسائل الدعوة

إذا كانت السيرة قصة رائعة كما ذكرنا آنفاً، فمن المستحسن أن نورد هذا الفصل في أهمية القصة في مجال الدعوة إلى الله.

يقول الله تعالى: ﴿فَأَقْصِبْ أَلْقَصَبَ أَعْلَاهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

للقصة سحرٌ أخاذ، وتأثيرٌ نفاذ، وللنفس تعلقٌ بها كبير، يشترك في ذلك الكبير والصغير، والعالم والأمي، والحضريّ والبدوي، والغني والفقير.

ولذلك بدأت الحكايات في فجر حياة الإنسان .. فما من أمة في الأرض إلا وقد اهتمت أبناءؤها بالقصص والحكايات، سواء كانت هذه القصص واقعية أم أسطورية، وربما كانت هذه الطبيعة البشرية هي التي أملت رواية الأحداث وتناقلها على شكل حكايات، حتى أصبحت هذه الحكايات هي النواة التي قام عليها علم التاريخ.

وهذه المتعة البالغة هي التي تجعل الأطفال يتعلقون بجذاتهم اللاتي يحفظن الحكايات الكثيرة المثيرة الجميلة، وهي ذاتها هي التي جعلت الكبار يتحلّقون حول (الحكواتي) الذي كان يجلس إلى عهد قريب على نشز من الأرض، يروي قصة عنزة والملك الظاهر، وغيرهما من القصص، ويدفعون لقاء ذلك شيئاً من المال لصاحب المقهى الذي يضم هذه المجالس.



وهذه المتعة هي التي كانت السبب في قيام فن القصة والأقصوصة والرواية والمسرحية، وقد عرفنا هذه الفنون عن طريق الغرب، وتخصّص في كتابتها ناس موهوبون .. وقام المترجمون بنقل روائع القصص العالمية إلى لغتنا، وكان لذلك تأثير وأي تأثير.

إنّ الدعاة إلى الله يحتاجون أول ما يحتاجون إلى الأسلوب الحسن .. إنهم مدعوون إلى أن يجددوا في أساليبهم .. وأن يختاروا أكثرها قرباً إلى نفوس الناس عامّة والناشئة خاصة. أمّا قوّة الفكرة وصلاحتها للحياة، فهذه قائمة في هذا الدين الذي يدعون الناس إليه منذ أن أنزله الله تبارك وتعالى.

ومن المؤسف أنّ بعض الأساليب لدى كثير من الدعاة متقد، وربما أدت هذه الأساليب إلى غرض مناقض معاكس لما كان يريده الدعاة .. إنّ كثيراً من هذه الأساليب ينفر ولا يبشر، ويبعد ولا يقرب، ويغوي ولا يهدي .. فما أجدر الدعاة إلى الله أن يراجعوا هذه الأساليب، وأن يتدبروا قوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وُكُنتَ فظاً غليظ القلبِ لَأَنْفِضُوهُ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].



وقوله تعالى لموسى وهارون : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ
قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

ومن الأساليب النافعة جداً القصة.

وأكثر الدعاة إلى الله مع القصة في أزمة مستحكمة، فهم بين طرفين
متناقضين ولا يعرفون التوسط :

فهم إما ألاّ يعمدوا إلى القصة أصلاً، ويقتصرون على تقرير الحقائق
الإسلامية، والأحكام الشرعية، والأخلاق الحميدة، ويكون كلامهم
تقريرياً عليه طابع التجريد، وقد يورد بعضهم التفرع والتنوع
والافتراضات للمسألة كما ورد في كتب الفقه المطولة، وهذا قد يدخل
الملل إلى النفوس، ولا يؤدي الغرض المطلوب في التأثير.

وإما أن يعمدوا إلى القصص المكذوبة، والإسرائيليات الباطلة،
والخرافات الأسطورية يحشون كلماتهم بها، ويملئون مجالسهم بها
وأحاديثهم وفي ذلك ما فيه من إدخال الخلل في تصور الإسلام، وإغواء
الناس، وإبعادهم عن طريق الحق.

إنَّ القصة عندما تؤدّي على الوجه المتقن المحكم المحبوك، تجعل
السامع يتفكّر في المغزى الذي تقوم عليه القصة، وتحمله على أن يتأثر بها
تأثراً بالغاً وتجعله مقتنعاً بالفكرة لا عن طريق الموعظة والإرشاد
والتوجيه.



بل تجعله مقتنعاً بالفكرة كأنه هو الذي وصل إليها دون تأثير من الآخرين .. وهاهنا تكمن أهمية القصة في الدعوة إلى الله، ذلك لأنّ النفوس ليست دائماً مستعدة لقبول الموعظة، ولا سيما إذا كان الواعظ بعيداً عن الحكمة. أما القصة فإن تأمل أحداثها والتفاعل معها، يحمل المرء على أن يتفكر في مغزاها وعبرتها.

إنّ القصة التي تعالج موضوع إنسان كذاب مؤذٍ للناس، وتحدث عن رأي الناس فيه، وعن المصاعب التي يلقاها بعد حين عندما ينكشف أمره للناس، وعن النكبات التي تحل به عند ذلك إن هذه القصة التي يرويها الداعية تجعل السامع مقتنعاً بالفكرة التي يريد أن يقررها، وكأن تلك الفكرة نبعت من ذات نفسه.

فهو يردد بينه وبين نفسه أن الكذب رذيلة، وأن الكذب سبب لشقاء الإنسان الكاذب، وأن الكذب سبب لنفرة الناس عن الكذاب .. وأنّ الكذب قد يعرض صاحبه إلى بلايا ورزايا وأزمات ونكبات .. وقد كان ناجياً منها بعيداً عنها لو أنه أجنب الكذب.

إنّ هذا الاقتناع الذاتي الذي يتولد عند سامع القصة هو الذي يمكن أن ندركه من قوله عزّ من قائل: ﴿ فَأَقْصِبِ الْفَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].



ومن قوله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

إنَّ في قصص هؤلاء الأنبياء مع أمهم عبرةً لأولي الألباب. هذه حقيقة يقررها القرآن الكريم، وعلى الدعاة إلى الله أن يعوها حق الوعي ليستخدموا هذه الأداة الفعالة في دعوتهم. أجل .. إنَّ في القصة عبرة دون شك، ويعظم تأثر الناس بالعبر بمقدار ما يكون المتحدث موهوباً في عرض القصة، وصياغتها وحبك عقدها، وتشويق السامعين إلى متابعتها، وبمقدار ما يكون اهتمامه بالنواحي الواقعية في هذه القصة.

أمَّا مصادر القصة فكثيرة ... إنَّ في الحياة الواقعية قصصاً مثيرة، يعجز الخيال عن الإتيان بما يقرب من روعتها ودلالاتها وإتقانها وإحكامها ... ولو أنَّ القراء الكرام راجعوا أنفسهم فيما قابلوا من أحداث ووقائع، لوجدوا أنَّ لديهم من القصص عدداً كبيراً ليس هناك أمتع منها ولا أنفع ولا أشد تأثيراً منها. وفي أخبار الصحف قصص واقعية مسجلة .. وهي كلها من الحياة.

وكتب التاريخ القديم والحديث مملوءة بالقصص المثيرة الكثيرة. وكتب التراجم كذلك فيها قصص رائعة، وكتب الأدب فيها القصص الكثيرة. وقبل ذلك كله كتاب الله فيه القصص المترعة بالمواعظ والعبر، وكذلك سنة رسول الله ﷺ وسيرته والشريفة.



إنَّ على الداعية أن يتخير من هذه المصادر المتعددة القصص التي تخدم القضية التي يدعو إليها، وكلما ربط النَّاس بأمرين كان أكثر نجاحاً وتأثيراً.

وهذان الأمران هما:

- القصص الدينية الصحيحة الواردة في الكتاب والسنة والسيرة، فتغلغل العاطفة الدينية في أعماق نفوس جماهيرنا المسلمة كبير كبير.
- وربطهم بالواقع الذي يحيونه، وضرب الأمثلة الحية المشوقة التي تتفاعل مع أحاسيسهم ومشاعرهم.

إنَّ على الدعاة أن يتخيروا من القصص الصحيح المؤثر الذي يعمل على توليد الاقتناع التام في نفوس السامعين. ولا بُدَّ من تحري الصحة والصدق، ذلك لأنَّ كثيراً من الأقاصيص التي يوردها بعض الوعاظ أسطوري سخيف، فيه الأغاليط الشنيعة، والأكاذيب المفزوحة البعيدة عن الإسلام ومقاصده، فتؤدي نتيجة معاكسة.^(١)

إننا نريد من الداعية أن يكون ناجحاً في دعوته. ومن أهم أسباب نجاحه أن يكون حديثه حديثاً ممتعاً مفيداً مشوقاً، فلا يجوز أن يُغرق نفسه وسامعيه بالكلام المجرد النظري، لأنه لو فعل ذلك أمل السامعين

(١) وقد بينت خطر هؤلاء القصاص الجهلة وإساءتهم لحقائق الدين ومعانيه الكريمة في مقدمات كتب القصاص التي نشرتها وحققتها وهي "أحاديث القصاص" لابن تيمية، و"الباعث على الخلاص" للحافظ العراقي، و"تحذير الخواص" للسيوطي، و"القصاص والمذكرين" لابن الجوزي.



ونفرهم، ويمكن أن يدرأ عن حديث ذاك المثل بأن يضمن حديثه قصة من قصص القرآن أو السنة أو السيرة، ويعلق عليها، أو قصة من القصص الواقعية المحبوكة.

وكذلك من أسباب نجاحه أن يضع الشباب خاصة والمدعويين عامة، في جو يعينه على تحقيق بغيته، ومن ذلك أن يشغل الشباب بقراءات يوصيهم بها، ويدخل في هذا المجال ترغيبه إياهم بقراءة القصص الإسلامية المؤثرة، ولو استطاع أن يوزع عليهم بعضها مكافأة للمجدد كان ذلك أحسن وأفضل.

وهنا لا بد من أن أدعو المهوبين من حملة الفكرة الإسلامية دعوة صادقة حارة إلى أن يقدموا للناس ما يستطيعون من القصص .. إنَّ عليهم أن ينفضوا عنهم غبار الكسل والاسترخاء؛ فالزمن لا ينتظر المتقاعسين المتثاقلين، إننا في معركة مع الباطل، ولا بد من العمل المشترك في الميادين المختلفة لنصرة الحق والخير، ومقاومة الباطل والشر، ومن يدعو إليهما.

وأكاد أصل إلى أن الكتابة واجب متعين على القادرين المهوبين إن كانوا صادقين في تبنيهم للإسلام.

إنَّ عليهم أن يسخروا هذه المواهب والطاقات لخدمة الإسلام عن طريق القصة. أوليس من المؤسف أن نجد اليساريين والملحدون



والمنحليين الساقطين مستخدمين لوسيلة القصة في نشر ردائهم
وضلالاتهم أوسع استخدام بين الشباب والشابات !!؟

- إنك لتراهم في قصصهم يحملون كثيراً من المظالم الاجتماعية القائمة في
بلاد المسلمين للإسلام .. وهم يعلمون أن الإسلام بريء من ذلك
كله .. بل ما كانت هذه المظالم إلا لأن الإسلام نُحِيَ عن الحياة
والحكم في معظم ديار المسلمين منذ عهد بعيد.

- أعرف داراً من دور النشر قامت منذ أكثر من خمسين سنة في بلد من
بلاد المسلمين، اتخذت لها مركزاً في طرف المدينة، وشرعت تنشر
القصص المترجمة عن الروسية، وهذه القصص تعالج القضايا
الاجتماعية من خلال النظرية الشيوعية، وتنشر أيضاً القصص المترجمة
عن اللغات الأوربية، إن كان كتابها شيوعيين أو يساريين، تطبعها
طباعة أنيقة، وتخرجها إخراجاً فنياً جذاباً.

ولم يهتم بهذه الدار ولا بعملها أحد من الطيبين المسلمين، ولا ألقى
لها بالاً أحدٌ من رجال الفكر والسياسة من أعداء الشيوعية .. بل كانوا
يستهيئون بها إذا ذكرت أمامهم، ويسخرون منها وممن يحذر منها. ولم
يمض زمن طويل حتى تبين أثر هذه الدار عن طريق القصص .. إذا
مهدت لقبول الفكر اليساري، حتى ظهر جيل من المقتنعين به، وعرف
نفرٌ من الناس أثر الفكر والقصة، ولكن بعد فوات الوقت.



أقول ذلك لأبين خطورة القصة وسلطانها على النفس والعقل، ولو أنّ رجال الفكر والسياسة من أعداء الشيوعية أرادوا مواجهة هذا، لكان ينبغي عليهم أن يعدوا في مقابلة هذا التضليل والتغريب ما يكشفه ويبين انحرافه، وأن يقيموا دوراً إسلامية تنشر القصة الإسلامية الهادفة.. فالفكرة لا تقاوم إلا بالفكرة.. ولا مكان للظلام إن بزغت شمس الحقيقة.. وإن شمعة واحدة في غرفة لتطارد فلول الظلام.

- وإنك لتراهم أيضاً يعتمدون في قصصهم على الجنس والحب والغرام، فيوردون المغامرات العاطفية وحوادث الخيانة الزوجية، بشكل يغري المراهقين بقراءتها. والذين انصرفوا إلى هذا اللون المنحل أكثر من الذين تخصصوا باللون الفكري الهدام اليساري السابق ذكره، ذلك لأنّ مثل هذه القصص، تلقى رواجاً عند المراهقين والدهماء.. لقد قَصَّر كثير من كتّاب القصة جهودهم على هذا النوع من القصص، وتفننوا فيه فأفسدوا أبناء الأُمَّة وبناتها إفساداً كبيراً.

وإفساد الخلق عن طريق إثارة الغريزة وإلهابها يمهد الطريق لزلزلة الفكرة الإسلامية، لتحل محلها الأفكار الزائفة التي لا تعبأ بالخلق ولا تقيم له وزناً.

إنّ أعداء الإسلام يتخذون القصة أداةً يدعون بها إلى باطلهم، ويهاجمون بها حقائق الدين وتشريعاته، ويزلزلون ثقة الناس بقيمه ومثله. فهل نعي هذا الواقع؟ وهل نعمل على تغييره؟



إنَّ كتابة قصة ناجحة من الناحية الفنية والإسلامية، ربما كانت خيراً من إلقاء مئة خطبة.

إنَّ المهويين موجودون .. ولكن هؤلاء المهويين بحاجة إلى تشجيع. فعلى أصحاب الصحف والمجلات الإسلامية أن يفتحوا صدور صحفهم ومجلاتهم لهذه الطاقة الناشئة، وعلى رجال الفكر الإسلامي أن يُسدِّدوا هذه الطاقات ويُقوِّموها ويأخذوا بأيديها، حتى تستطيع أن تسدَّ الفراغ الكبير الذي يقوم في عالم النشر عند المسلمين اليوم .

ولنقرأ قوله تعالى بتدبر واع : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١].



قائمة ببعض القصص التي وردت في كتب الحديث النبوي

أحب أن أضع أمام القارئ قائمة في القصص النبوية التي وردت في كتاب: "رياض الصالحين" للإمام النووي. وقد اخترت هذا الكتاب لأن الأحاديث التي اختارها صحيحة عنده أو حسنة، ولأن هذا الكتاب متيسر مطبوع عدة طبعات وهو في مكتبة العالم والطالب وغيرهما.

- ١- قصة أصحاب الغار .. في باب الإخلاص.
- ٢- قصة الرجل و البعير في الفلاة .. في باب التوبة.
- ٣- قصة الرجل الذي قتل مائة نفس .. في باب التوبة.
- ٤- قصة الثلاثة من الصحابة الذين خلفوا .. في باب التوبة.
- ٥- قصة الساحر والملك والغلام .. في باب الصبر.
- ٦- قصة أبي طلحة وأم سليم .. في باب الصبر.
- ٧- قصة نبي من الأنبياء والغنائم والغلول .. في باب الصدق.
- ٨- قصة الأبرص والأقرع والأعمى .. في باب المراقبة.
- ٩- قصة الرجل الذي سقى الكلب .. في باب بيان كثرة طرق الخير.
- ١٠- قصة آدم وإبراهيم .. ومحمد .. في باب الأمر بأداء الأمانة.
- ١١- قصة جريج .. في باب فضل ضعفة المسلمين.
- ١٢- قصة الرحم .. في باب بر الوالدين.



- ١٣- قصة زينب امرأة ابن مسعود .. في باب بر الوالدين.
- ١٤- قصة أويس القرني اليميني .. في باب زيارة أهل الخير.
- ١٥- قصة عمرو بن عبسة .. في باب الرجاء.
- ١٦- قصة جوع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم .. في باب فضل الجوع.
- ١٧- قصة أبي هريرة وقدح اللبن .. في باب فضل الجوع.
- ١٨- قصة الحوت الضخم .. في باب فضل الجوع.
- ١٩- قصة أكل أهل الخندق من طعام جابر .. في باب فضل الجوع.
- ٢٠- قصة أكل الكثير من طعام أبي طلحة .. في باب فضل الجوع.
- ٢١- قصة السحاب الذي سقى حديقة رجل .. في باب الكرم والجود.
- ٢٢- قصة الرجل الذي أطعم الضيوف طعام أولاده .. في باب الإيثار.
- ٢٣- قصة أيوب والذهب .. في باب التنافس في التنافس في أمور الآخرة.
- ٢٤- قصة عَرَضَ عمر بنته حفصة على أبي بكر وعثمان .. في باب حفظ السر.
- ٢٥- قصة أبي هريرة .. والشيطان .. في باب الحث على سور وآيات.



- ٢٦- قصة الرجل الذي اشترى بيتاً ووجد فيه جرّة ذهب .. في باب المتثورات والملح.
- ٢٧- قصة المرأتين أكل الذئب ولد إحداهما .. في باب المتثورات والملح.
- ٢٨- قصة الناس في المحشر وشفاعة النبيّ .. في باب المتثورات والملح.
- ٢٩- قصة إسماعيل وإبراهيم في مكة .. في باب المتثورات والملح.
- ٣٠- قصة رؤيا رآها الرسول ﷺ .. في باب تحريم الكذب.
- ٣١- قصة المرأة التي دخلت النار في هرة .. في باب النهي عن تعذيب الحيوان.



عظمة شخصية النبي ﷺ ودورها في التأثير

إنَّ تأثير الشخصية الفذة في الناس أمر ملموس مقرر، لا يختلف فيه اثنان من العقلاء، وإنَّ للشخصية الكبيرة، وللزعيم الكبير دوراً عظيماً في انتشار الدعوات، وإقامة الدول، وذيوع المبادئ التي تحملها هذه الشخصية وذاك الزعيم. ولا نستطيع أن نفصل بين عناصر القوة والنجاح في الفكرة ذاتها، وبين حاجتها إلى الزعيم العظيم الذي يجمع القلوب عليها.

فالقوة الكبيرة تأخذ بألباب الجماهير، والبيان ساهر لأفراد الأمة، وقد قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من البيان لسحراً»، والخلق الكريم يجذب الناس إلى صاحبه.

بل إنَّ الدعوات التي تقوم على أساس إنكار خصائص الفرد، وعلى إذابة كيانه في بوتقة المجتمع لم يكن لها بدُّ من اتِّخاذ الشخصيات والزعماء على نحو يفوق الحركات الاستبدادية حتى استطاعت أن تأخذ طريقها إلى النجاح المؤقت.

وهكذا فإنَّه يبدو لدارس الحركات الاجتماعية والحركات السياسية عظم شأن الشخصية القيادية في الدعوات مهما كانت حقيقة هذه الدعوات.

إنَّ من فضل الله علينا وعلى الدنيا كلها أنَّ دعوة الإسلام اجتمع فيها صوابُ الفكرة، وعظيمُ صلاحيتها للحياة، وحيازتها لجميع



عناصر القوة والنجاح، والشخصية العظيمة: شخصية سيدنا محمد رسول الله ﷺ.

إن رسول الله ﷺ أعظم أبطال الإنسانية على مر العصور، نقول هذا معتمدين على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ويقول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

ويقول الله تعالى: ﴿يَتْلُوهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

ويقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقد شهد بذلك معاصروه ومعاشروه ومن جاء بعدهم من أتباعه ومخالفه، أجل لقد شهد بذلك ناس لا يشاركوننا الدين.



وقد ألفت مؤلفات جمعت أقوال هؤلاء، ويحسن أن نذكر أن بعض هؤلاء كانوا من ألد أعداء الإسلام، ولكنهم لم يستطيعوا إلا أن يعترفوا بعظمة هذا الرسول الكريم ﷺ.

من هذه الكتب: كتاب أصدره الشيخ أحمد بن حجر (قاضي قطر) بعنوان: "الإسلام والرسول في نظر منصفى المشرق والغرب" الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.

ومن ذلك كتاب أصدرته جمعية التمدن الإسلامي بدمشق بعنوان: "النبي ﷺ" كلمات بأقلام نخبة من الباحثين والأدباء المسيحيين المنصفين - طبع في مطبعة الترقى بدمشق ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

ومن ذلك كتاب أصدره الشيخ حسين عبد الله باسلامة بعنوان: "الإسلام في نظر أعلام الغرب".

ومن ذلك ما أصدرته الندوة العالمية بعنوان: "قالوا عن الإسلام" إعداد عماد الدين خليل.

* * *



دور سيرة النبي ﷺ في نجاح دعوته

لقد اجتمعت - بحمد الله وفضله - لدعوة الإسلام كل عوامل النجاح، فكتب الله لها وحملتها الفوز والغلبة، ومن أهم هذه العوامل توفيق الله وتأييده وشخصية الزعيم العظيم سيدنا رسول الله ﷺ.

ومن هنا علينا أن نتعرف إلى هذه الشخصية العظيمة، وذلك بالوقوف على سيرته الشريفة صلوات الله وسلامه عليه، وأن نعمل على أن تبقى توجيهاته القيمة التي نقلت إلينا في السنة المطهرة حية في ضمائرنا وعقولنا، وتكون هادية لنا في مسيرة الحياة .

ولن تجد الناس في دنيا البشر بطلاً أو زعيماً يوازي سيدنا محمداً ﷺ، أو يستطيع أن يقترب من الذروة السامقة التي تبوأها ﷺ.. لقد صنعه الله على عينه، وأحاطه برعايته وعنايته وتأييده، وأكرمه بالنبوة والرسالة. لقد اجتمع في شخص هذا الزعيم المفدى صلوات الله وسلامه عليه الشرف الرفيع، والخلق الزكي، والنبوة والرسالة، والعظمة والأصالة.

إن سيرة الرسول ﷺ صفحة مشرقة في تاريخ الإنسانية قاطبة، ارتفعت الإنسانية به إلى مستوى سام راقٍ لم يتح لها أن تبلغه بأحد من الناس قبله، ولن تبلغه بأحد بعده أبداً .



لقد عدت سيرته ﷺ منارة تُطل على قافلة البشرية الحائرة القلقة المشرفة الآن على الانهيار بسبب اندفاعها وراء الشبهات والشهوات، منارة تناديها وتضيء لها سبل الهدى والطهر والاستقامة.

وسيرته ﷺ هي التطبيق العملي لمبادئ الإسلام، تجد تلك المبادئ حيّة فيما تطلع عليه من أحداث تجلّي فيها المثل الأعلى للحياة السامية، تتوازن فيها دواعي المادة والروح، والدين والدنيا توازنا لا يجور فيه جانب على جانب.

من أجل ذلك كله كانت دراسة السيرة النبوية ضرورة لا بدّ منها للداعية المسلم.

إنّ رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة والقُدوة المثلّي للمسلمين عامة وللدعاة خاصة . يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولا يتمّ التأسّي به ما لم تتضح معالم سيرته في أذهان المعتدين والمرشدين .

إنّ عرض الداعية أحداث في مجال الدعوة يبين أن هذه الأحكام الشرعية والمبادئ الإسلامية التي تضمنتها قامت حقائق ملموسة في



واقع الحياة في حقبة سعيدة من الزمان في حياة الرسول العظيم ﷺ،
وكانت أكرم حقبة عرفها التاريخ.

إنَّ السيرة النبوية تكفل لنا إيضاح الوسط الروحي المتألق الذي
عاشت فيه هذه المبادئ الإسلامية، وتبين كيف انطلقت في حركتها
السريعة تسود الدنيا المعمورة في وقت قصير قصير.

إنَّ السيرة تبث الحيوية في الدعوة، وتوقظ في الناس الروح الدينية
الكريمة، وتخلص الدعوة من الجفاف والنظرية.

إنَّ واقع المسلمين اليوم مؤلم لبعدهم عن حقيقة دينهم، وهم بحاجة
إلى إصلاح يتغلغل إلى أعماق قلوبهم، فيبدل ما في نفوسهم وأذهانهم.

وإنَّ بشائر الخير، وأمارات التقدم، تبدو بين حين وآخر باعثة على
الأمم، وتحيي موات القلب، وتنشط الهمة، وتحفز إلى العمل، وتنتظر
هذه البشائر من يدفعها ويرشدها ويأخذ بيدها، هذا ومن أهم وسائل
بعث الأمم المتخلفة، وبث الحياة في كيانها الضعيف، ورفض غبار
التأخر والكسل عنها، وإيجاد اليقظة الواعية البناءة، ونشر صفحات
الماضي المجيد لهذه الأمم، وإحياء بطولاتها في أذهان أبناء الأمة
وناشئتها، وحضهم على متابعة السعي وبذل الجهد لاستكمال ما بنى
الآباء والأسلاف، وإذا أردنا أن ننظر في أمجادنا وبطولاتنا فلن نجد
مثل السيرة النبوية في هذا المجال على الإطلاق.



ولذا فإنّ على رجال الفكر، وأرباب القلم، أن يُولوا السيرة النبوية ما تستحق من الاهتمام والدراسة - عليهم أن يقدموها للناس بأسلوب سائع مؤثر جذاب - بالمحاضرات والخطب والدروس والمقالات، والأحاديث الإذاعية والندوات التلفزيونية وبالأسلوب القصصي، ويستخدموا لذلك كل وسائل النشر الممكنة.

قال عبد الرحمن عزام: [من الأبطال من احتازوا باتساع دائرة تأثيرهم وسلطانهم ... أولئك هم المبرزون في تاريخ الإنسانية، وأولئك هم الذي كان لإصلاحهم الخلود والأثر الباقي، وأعظم هؤلاء هو محمد ﷺ]. (١)

إنّ جانب الدعوة إلى الله في السيرة النبوية يشمل السيرة كلها، فرسول الله ﷺ شاهد ومبشر ونذير وداعٍ إلى الله .. بل هو إمام الدعوة وسيدهم صلوات الله وسلامه عليه يقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَيَسْرَجًا مِّنِيرًا ﴿﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. فقال عبد الله: (أجل، إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وحرزاً للأمين، أنت عبدي

(١) "بطل الأبطال" ص ٥.



ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عمياً، وآذانا صماً، وقلوباً غلفاً). (١)

وهذا وصف ينطبق عليه ﷺ، هذا وقد روى ابن أبي حاتم - ونقله عنه ابن كثير في تفسيره - هذه الآية نصاً جميلاً عن وهب بن منبه معناه صحيح نوره هنا لصحة معناه، ودقة وصفه لسيدنا رسول الله الداعية الرسول، قال وهب: (إن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: ... أبعث أمياً من الأميين، أبعثه مبشراً، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه مبشراً ونذيراً، لا يقول الخنا، أفتح به أعيناً كمها، وآذاناً صماً، أسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقته، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام حلتته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأعرف به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة،

(١) رواه البخاري (٤٨٣٨)، وأحمد ٢/ ١٧٤.



وأهواء مشتتة، وأستنقذ به فئاماً من الناس عظيمة من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدين مؤمنين مخلصين، مصدقين لما جاءت به رسلي، ألهمهم التسبيح والتحميد، والثناء والتكبير والتوحيد، في مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم يصلون لي قياماً وعوداً، ويقاتلون في سبيل الله صفوفاً وزحوفاً، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتي ألوفاً، يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب في الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، رهباناً بالليل، ليوثُ بالنهار، وأجعل في أهل بيته وذريته السابقين والصدّيقين والشهداء والصالحين، أمته من بعده يهدون بالحق، وبه يعدلون، أعزُّ من نصرهم، وأؤيد من دعا لهم، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغى عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئاً ممّا في أيديهم، أجعلهم ورثة لنبيهم، والدعاة إلى ربهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهدهم). (١)

إنه نص جميل - وردت فيه جملة من صفات الرسول ﷺ الدعوية، وورد فيه ذكر لفضله العظيم على أمته التي هداها الله به، فكان فيها بفضل الاقتداء به صفات الدعاة الصادقين.

(١) أنظر "تفسير ابن كثير" سورة الأحزاب الآيتان ٤٥-٤٦.



السيرة النبوية هي التطبيق العملي للشريعة

أجل إنَّ السيرة النبوية تمثل التطبيق العملي لمبادئ الإسلام، على يد نبي الله وخير خلقه محمد بن عبد الله ﷺ.

إننا نجد في أحداثها المشرقة الكريمة مبادئ الإسلام حيَّة متحركة .. إنَّ الكلام النظريّ المجرّد قد يقنع الفكر عندما يكون حقاً، وعندما يكون عرضه موفّقاً، وعندما يكون السامع على مستويّ جيد من الفهم والإدراك، ولكنه لا يولّد في المرء الحماسة، ولا يحدث التعاطف والاندفاع لتحقيق مضمون هذا الكلام، أمّا عندما يدعم هذا الكلام النظريّ واقعٌ حيٌّ تجسّدت فيه مبادئ هذا الكلام، وبرز ما فيه من مُثُلٍ بين ظهرائي الناس يبصرونها ويعايشونها، فإنّ ذلك يفعل في النفس فعل السحر ويدفعها إلى تحقيق الخير، وتنحية الشر، وإحقاق الحق، وإزهاق الباطل.

نعم .. إنَّ السيرة النبوية سدّت ثغرة في هذا المجال لا يسدّها غيرها .. ذلك لأنّ عرض مبادئ الإسلام وعرض النظرات الإسلامية في شتى جوانب الحياة بعيداً عن الواقع يُفوّت على الناس أن يدركوا سرّاً من أسرار هذه الشريعة، وخاصة من خصائصها.

إنّ هذه الشريعة هي النظام الوحيد الذي يجمع بين الواقعية والمثالية، وإنها هي الحل الوحيد لعلاج مشكلات الإنسان المادية والمعنوية.



إنَّ إدراك هذه الخاصة ينتهي بالإنسان إلى الاعتقاد الجازم أن هذه الشريعة منزلة من عند الله دون شك، ويجعله يدرك عظمة هذه الشريعة في مجال الفكر والخُلق والاقتصاد والسياسة والعبادة والتشريع.

إنَّ دراسة السيرة وتمثلها واستيعابها يكفل إيضاح الوسط الروحي السامي الذي قامت فيه المبادئ الإسلامية حية متحركة، ونهضت اعتماداً عليها حضارة ودولة وفي ذلك تقويم وتربية وعون على التأسّي والافتداء.

إنَّ السيرة النبوية تبين الصفات الأساسية المهمة التي ينبغي أن تكون في الداعية وهذه الصفات كثيرة نذكر منها ما يأتي:

١ - العلم: فلقد كان ﷺ يعلم أصحابه أحكام الدين، ويدعوهم إلى

التعلم بالقول والفعل، فمن قوله ﷺ في الدعوة إلى التعلم

قوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١).

وقوله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهّل الله له به

طريقاً إلى الجنة...»^(٢).

وقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء وإنَّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً

ولا درهماً، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^(٣).

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٤٦)، والترمذي (١٩٣٠).

(٣) رواه أبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، والترمذي (٢٦٨٢)، وأحمد ٥/١٩٦



ومن فعله ﷺ تحقيق ذلك وحضه على تعلم الصلاة عملياً كما جاء في الحديث: «صلوا كما رأيتموني أصلي». (١)

وتعلم مناسك الحج عملياً كما جاء في الحديث: «خذوا عني مناسككم». (٢)

وحضه على تعلم الكتابة والقراءة كما جاء في حادثة فداء الأسرى فقد روى أحمد (٣) بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة.

٢- التخطيط: تعلمنا السيرة أن على الدعاة أن يصدروا في أعمالهم عن تخطيط، فقد كان رسول الله ﷺ يخطط ويحكم التخطيط، فمن ذلك ترتيبه الهجرة.

لقد خطط رسول الله ﷺ لهجرته إلى المدينة، ورسم الخطة، وحدد الوقت، وأعد العدة من الدليل، والزاد، والراحلة على

(١) رواه البخاري (٦٠٠٨).

(٢) رواه مسلم (١٢٩٧)، وأبو داود (١٩٧٠).

(٣) "مسند أحمد" ٢٤٧/١، وفي طبعة شاكر ٤٧/٤ برقم ٢٢١٦، وانظر "طبقات ابن سعد" ٢٢/٢ ط بيروت، و"البداية والنهاية" ٢٥٦/٥ ط هجر، و"المتقى" لعبد السلام ابن تيمية برقم ٤٣٨٧، وكتابتنا: "الحديث النبوي" ط ٨ ص ٤٠-٤١.



النحو الذي تذكره كتب السنّة، وكتب السيرة.

لما اشتد الأذى على المسلمين في مكّة، وأصبح لهم مُهاجر في المدينة بعد أن ظهر الإسلام شرع أفراد من المسلمين يهاجرون إليها بصورة فردية، وقد أراد سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن يهاجر، فلما علم ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم استبقاه وأشعره أنه ربما سيكون صاحبه في هذه الرحلة .. فاستعد أبو بكر لذلك، فاشترى راحلتين وشرع يعلفهما، ولم يرض النبي صلّى الله عليه وسلّم إلا أن يدفع ثمن الراحلة التي سيركبها..

ولما جاءه الإذن من الله بالهجرة أتى سرّاً إلى بيت أبي بكر وأخبره بعزمه على الهجرة، فطلب أبو بكر الصحبة فوافق النبي صلّى الله عليه وسلّم وفرح أبو بكر رضي الله عنه فرحاً شديداً حتى صار يبكي من الفرح.

ولإحكام الخطة أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم علياً رضي الله عنه أن يبيت مكانه كي لا يقع الشك في وجوده، ذلك أنّ المشركين كانوا يحاصرون البيت يريدون قتل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقد تعاهدوا أن ينقضوا عليه إذا خرج ويضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد كي يضيع دمه في القبائل، فكانوا يرددون النظر من خلال شقوق في الجدار، وكلف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم علياً أن يؤدي الأمانات إلى أهلها.

ثم خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحده من مكّة ليلاً، وتقابل مع الصديق خارج مكّة، وانطلقا.



وكان استأجر عبد الله بن أريقط، وهو رجل خبير بالطرق ليدلها على الطريق، وأعطاه الراحلتين وواعد غار ثور بعد ثلاث ليال.

وانطلق ﷺ هو وصاحبه ومعها عامر بن فهيرة الذي كان يتبعهما بغنم كي يخفى على أثرهما.

وأعدَّ ﷺ لهذه الرحلة عدتها من الزاد، فوضع في جراب، وقطعت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها نطاقها وربطت به على فم الجراب.

وأقاما في الغار ثلاث ليال حتى ينقطع عنهما الطلب، وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت معهما، ثم يقوم من آخر الليل ويعود إلى مكة فيصبح بها ليقف على كيد المشركين ثم يأتي الغار في المساء ويذكر لهما ما سمع من القوم.

وهذا التخطيط لا يتعارض مع التوكل على الله، ذلك لأنَّ الأخذ بالأسباب مطلوب، ثمَّ بعد ذلك يكون التوكل على الله، وقد قال رسول الله ﷺ لمن سأله أيعقل ناقته أم يتوكل على الله ويتركها هكذا: فقال ﷺ: «اعقلها وتوكل»^(١).

إنَّ رسول الله ﷺ سيد المتوكلين، وقد خطَّط هذا التخطيط العظيم لرحلة الهجرة، إنَّ هذا درس للدعاة إلى الله .. إنَّ عليهم أنَّ يصدروا في برامجهم الدعوية عن تخطيط مدروس محكم اقتداءً برسول

(١) رواه الترمذي (٢٥١٧).



الله ﷺ، ولا يجوز أن تكون أعمالهم ردود فعل لما يفعله الأعداء المخالفون فقط، بل عليهم أن يكون عملهم قائماً على الخطة التي وضعوها بعد معرفة الواقع والظروف التي يعيشون فيها.



المحاولة بشتى الطرق المتاحة للدعوة

إنَّ السيرة النبوية لتبيِّن للدعاة إلى الله أنَّ من الصفات الأساسية التي عليهم أن يتصفوا بها التخطيط .. وأنَّ على الداعية أن يصدر في أعماله كلها عن خُطَّة مدروسة اقتداءً برسول الله ﷺ وقد ضربنا لذلك مثلاً في ما سبق ما فعله ﷺ، من التخطيط المحكم لهجرته إلى المدينة المنورة.

ومن التخطيط الذي تطالعنا به السيرة النبوية أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يترك فرصة ولا مجالاً للدعوة إلا سلكه .. فلما قوبل من قومه بالإيذاء والتكذيب والإعراض، والعناد وتعذيب أصحابه، حتَّى بلغ بهم الأمر أن يهملوا بقتله، شرع ﷺ يبحث عن مجال آخر، فذهب إلى الطائف، وعمد إلى نفرٍ من ثقيف، فدعاهم إلى الله، فلم يقبلوا دعوته، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به .. فلجأ إلى بستان هناك وقال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك. لك العتبى حتَّى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».



ورجع رسول الله ﷺ إلى مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من العداة ومفارقة دينه إلا قليلاً ممن آمن به من المستضعفين، فكان ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب في المواسم يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم ما بعثه الله به. وفي "سيرة ابن هشام" تفصيل لتلك القبائل التي عرض رسول الله ﷺ نفسه عليها. فمن ذلك النص الآتي:

[قال ربيعة بن عباد الديلي: إني لغلأم شاب مع أبي بمنى، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول:

«يا بني فلان إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تحلحوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به».

قال: وخلفه رجل أحول وضيء، له غدירתان، عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعاه، قال ذلك الرجل: يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن.. إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه.

فقلت لأبي: يا أبت من هذا الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول؟



قال: هذا عمّه عبد العزى بن عبد المطلب، أبو لهب. (١)

- وعرض نفسه على بني كلب، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم .
- وأتى بني حنيفة فدعاهم إلى الله، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردّاً منهم .
- وأتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله، وعرض نفسه عليهم فردّوه .
- وهكذا كان رسول الله ﷺ كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاء به من الله من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع بقادم يقدّم مكة من العرب له اسم وشرف إلاّ تصدّى له، فدعاه إلى الله، وعرض عليه ما عنده .
- وما زال الرسول العظيم ﷺ يعمل وفق هذه الخطة، ولا يداخله اليأس على الرغم ممّا كان يلقي من الإعراض والصدّ .. حتى خرج في الموسم على عادته يدعو ويعرض نفسه على القبائل .. فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج .
- فقال لهم: «من أنتم؟» .

(١) "سيرة ابن هشام" ٢/٦٤-٦٥، ورواه أحمد في "المسند" ٣/٤٩٢ و ٤/٣٤١، وروى نحوه طارق بن عبد الله المحاربي كما جاء في "المستدرک" للحاكم ٢/٦١١-٦١٢، وابن حبان ١٤/٦٥٦٢ .



- قالوا: نفر من الخزرج.
 - قال: «من موالي يهود؟».
 - قالوا: نعم.
 - قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟».
 - قالوا: بلى.
- فجلسوا معه فدعاهم إلى الله ﷻ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن .. فلما كلمهم رسول الله ودعاهم قال بعضهم لبعض: يا قوم والله إنه للنبي الذي تتوعدكم به اليهود، فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه وصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. ودعوا رسول الله ﷻ أن يأتيهم إلى المدينة .. ثم انصرفوا إلى بلادهم.

فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله ﷻ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ لرسول الله ﷻ حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلحقوا رسول الله بالعبقة - وهي العبقة الأولى - فبايعوا رسول الله ﷻ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب عليهم.

وبيعة النساء هي الواردة في سورة الممتحنة، وذلك في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُسْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ



وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ [المتحنة: ١٢].

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: [كنت فيمن حضر العقبة الأولى وقد بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، وقال: فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدين فهو كفارة له، وإن سئرتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله وعزك إن شاء عذب، وإن شاء غفر].^(١)

وأرسل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير العبدي، وعبد الله بن أم مكتوم - وهو ابن خالة خديجة - يقرآنهم القرآن، ويفقهانهم في الدين.

وكان مصعب رضي الله عنه رجلاً حكيماً يعرف كيف يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وحسن التأيي، وقد سبق له أن هاجر إلى الحبشة وعاد.

ونزل مصعبٌ على أبي أمامة أسعد بن زرارة، وصار يدعو إلى الله الناس جميعاً من الأوس والخزرج وغيرهم، ويبدو أنه نجح في الدعوة، واستجاب له الجمع الكثير.

(١) "سيرة ابن هشام" ٧٦/٢، وهذا الحديث أخرجه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).



وبينما هو في بستان مع أسعد بن زرارة فوجئ بدخول رجل قوي يريد الإساءة إليه.

ذلك أن سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس قال لابن عمه أسيد بن حضير: ألا تقوم إلى هذين الرجلين - يريد مصعباً وابن أم مكتوم - اللذين أتيا يسفهان ديننا، ويغريان الضعفاء من قومنا بالدخول في دينهما، فقم وازجرهما.

فاستجاب أسيد لدعوة سعد، وقام يحمل حربته، وجاء إلى البستان الذي فيه مصعب .. فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومك، وقد جاءك فاصدق الله فيه، فلما وقف عليهما قال: ما جاء بكما تُسفهان ضعفاءنا؟ اعترلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة.

فقال مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كففتنا عنك ما تكره.

فقراً عليه مصعب القرآن، فاستحسن دين الإسلام، وهداه الله وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ورجع إلى سعد، فسأله سعد عما فعل.

فقال: والله ما رأيت بالرجلين بأساً.

فغضب سعد، وقام لهما متغيظاً، ففعل معه مصعب كسابقه، فهداه الله للإسلام أيضاً.



ورجع سعد لرجال من بني الأشهل - وهم أهلهم وهم بطن من الأوس - فقال لهم: ما تعدّونني فيكم؟
قالوا: سيدنا وابن سيدنا .
فقال: كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تسلموا.
فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلا أجابه.
ولما كان وقت الحج في العام الذي يلي البيعة الأولى قدم مكة كثيرون منهم.
وهكذا نجحت خُطّة الرسول العظيم في دعوته.



التخطيط

إنَّ الدرس الذي ينبغي أن يعرفه الدعاة من السيرة، وأن يعملوا به هو التخطيط اقتداء برسول الله ﷺ.

فإنَّه ﷺ عندما رأى إعراض قريش عن الحق، وتكذيبها لدعوته، وصدّها عن سبيل الله، اتّجه إلى عرض نفسه على قبائل العرب في المواسم .. وكانت العقبة الأولى التي تحدثنا عنها آنفاً الخطوة الأولى في إعداد المهاجر: المدينة المنورة، لتكون الأرض التي يقيم عليها دولة الإسلام ومجتمعه .. وقد نجح مصعب بن عمير ﷺ في دعوته، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .. فلمّا كان العام الذي يلي البيعة الأولى قدم مكة كثير من أهل يثرب منهم مؤمنون، ومنهم مشركون يريدون الحجّ.

فقابل وفدٌ منهم رسول الله ﷺ، وطلبوا اللقاء معه، واتفقوا على أن يكون اللقاء بعد الانتهاء من الحج عند شعب العقبة، فأوصاهم رسول الله ﷺ أن يكتموا أمر هذا اللقاء عن رفاقهم المشركين الذين جاؤوا معهم، خشية أن تعلم قريش فتفسد الأمر.

وقد تجمعوا بعد الانتهاء من الحج بعد ثلث الليل الأول، وكان عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً: اثنان وستون من الخزرج، وأحد عشر من الأوس، ومعهم امرأتان هما: نسيبة بنت كعب من بني النّجار، وأسما بنت عمرو من بني سلمة.



وذهب إليهم رسول الله ومعه عمّه العباس وهو على دين قومه، ولكنه أراد أن يحضر الجلسة ليتوثق لابن أخيه.

فلما اجتمعوا قال العباس: إن ابن أخي مازال في منعة من قومه، ولم يستطيع أحد من أعدائه أن ينال منه، وقد تحملنا من ذلك شدة عظي، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحمّلت من ذلك، وإلا فدعوه بين عشيرته فإنهم ليمكن عظيم.

فقام البراء بن معرور، وتكلم كلاماً طيباً جداً.

ثم قالوا لرسول الله ﷺ: خذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فقال ﷺ: «أشترط لربي أن تعبدوه وحده، ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم». فقال له أبو الهيثم بن التيهان: يا رسول الله. إن بيننا وبين الرجال عهداً، وإننا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسم النبي ﷺ وقال: «بل الدم الدم، والهدم والهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم». أي: إن طالبتكم بدم طالبت به، وأن أهدرتموه أهدرتته.

وابتدأت المبايعة وهي التي عرفت بالعقبة الثانية، فبايعه الحاضرون على ما طلب، ثم قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إلي منكم اثني عشر



نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي».

قال العلامة محمد الخضري:

[ولأمر ما أراده الله بلغ خبرُ هذه البيعة مشركي قريش، فجاءوا ودخلوا شعب الأنصار وقالوا: يا معشر الخزرج، بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا، وتبايعونه على حربنا؟ فأنكروا ذلك، وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة يملفون لهم أنهم لم يحصل منهم شيءٌ في ليلتهم، وعبد الله بن أبي كبير الخزرج يقول: ما كان قومي ليفتاتوا عليّ بشيء من ذلك].^(١)

قال العلامة محمد الغزالي:

[تلکم بیعة العقبة، وما أبرم فیها من موثیق، وما دار فیها من محاورات.. إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتمشّت في كلّ كلمة قيلت، وبدا أنّ العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجّه الحديث أو تملي العهود، كلا، فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم، والمغارم المتوقّعة نُظر إليها قبل المغانم الموهومة. مغانم؟ أين موضع المغانم في هذه العقبة؟؟

(١) "نور اليقين" ص ٧٧-٧٨.



لقد قام الأمر كله على التجرد المحض، والبذل الخالص.
هؤلاء السبعون، مُثُلٌ لانتشار الإسلام عن طريق الفكر الحرّ،
والاقتناع الخالص ..

فقد جاؤوا من يثرب مؤمنين أشدّ الإيمان، ومليين داعي التضحية،
مع أنّ معرفتهم بالنبي ﷺ كانت لمحة عابرة، غبرت عليها الأيام،
وكان الظن بها أن تزول .

لكننا لا يجوز أن ننسى مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة
والثقة. إنه القرآن !

لئن كان الأنصار قبل بيعتهم الكبرى لم يصحبوا الرسول إلاّ عاماً إنّ
الوحي المُشعّ من السماء أضاء لهم الطريق وأوضح لهم الغاية ..
لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن، سال على السنة الحفظا،
وتداولته صحائف السفارة الكرام البررة، والقرآن النازل بمكة صور
جزاء الآخرة رأي العين .

فتوشك أن تمدّ يدك، تقطف من أثمار الجنة، ويستطيع الأعرابي المتعشق
للحق أن ينتقل في لحظة فداء من رمضان الجزيرة إلى أنهار النعيم
والرحيق المختوم.

وحكى القرآن أخبار الأولين، وكيف أخلص المؤمنون لله فنجوا مع
رسلهم، وكيف طغى الكفار وأسكرهم الإمهال فتعتتوا وتجرّوا، ثم
حلّ العدل الإلهي فذهب الظالمون بدداً، وتركوا وراءهم دنيا مدبرة،
ودوراً خربة.



فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم
ثم إنَّ الرسول ﷺ جعل من هذا الإيمان بالحقِّ رباطاً يعقد من تلقاء
نفسه صلة الحب والتناحر بين أشتات المؤمنين في المشرق والمغرب .
فالمسلم في المدينة - وإن لم ير أخاه المستضعف في مكة - يحنو عليه،
ويتعصب له، ويغضب من ظالمه، ويقاتل دونه [...].^(١)
إنها خطة محكمة طويلة المدى .. وقد أثمرت مراحلها، ونجحت في
تحقيق قيام الدولة الإسلامية .
وجدير بالدعاة إلى الله أن يلتزموا بهذا الدرس الدعوي.

(١) "فقه السيرة" ص ١٥٩-١٦١.



التدرج في تبليغ الناس أحكام الدين

ومن الدروس التي يجب أن يستفيد منها الدعاة إلى الله من السيرة النبوية التدرج في تبليغ الناس أحكام الدين، اقتداءً منهم برسول الله ﷺ في دعوته، وذلك واضح بين في مراحل الدعوة التي سلكها وأوصى بها أصحابه رضوان الله عليهم.

فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم أنه ﷺ عندما أرسل معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن أوصاه وصية رائعة.. فقد أوصاه أن يبدأ دعوته بالتوحيد ونبد الشرك، فإذا استجاب الناس وأطاعوه فليأمرهم بإقامة أركان الإسلام.

ويحسن بنا أن نورد نص الحديث^(١) كما جاء في الصحيحين:

عن ابن عباس عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال: «إنك تأتي قوما أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس

(١) انظر شرحنا للحديث في كتابنا "الحياة الاجتماعية في ضوء السنة".



بينه وبين الله حجاب»^(١).

إنَّ هذا الحديث العظيم يدلُّ على وجوب اتباع المراحل التي ينبغي أن يسلكها الدعوة والقادة وأولو الأمر في دعوة الناس، وإقامة المجتمع الإسلامي.

وأول هذه المراحل - كما جاء في الحديث - الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، ثم البداءة بالأهم فالأهم.

إنَّ البداءة بالأهم ثم المهم من التلطف في خطاب الناس ودعوتهم، لأنهم لو طولبوا بجميع أحكام الدين دفعة واحدة في أول مرة لم يأمن الداعي من النفرة.

إنَّ مراعاة الأولويات شيء أساسي في نجاح الدعوات، وكثيراً ما يغفل الدعاة عن هذا الأمر.

إنَّ كلَّ كلفةٍ وجزئية جاء بها الشرع المطهّر وأمر بها على وجه اللزوم واجبة التطبيق، والتهاون فيها يحمل معنى سيئاً لا يليق بالمسلم أن يتصف به، وجهلها إن كانت مطلوبة على وجه الوجوب نقص في المسلم لا يجوز أن يستمرّ فيه، ولكن هذا شيء، والتدرّج في مطالبة الناس بالالتزام بالإسلام شيء آخر.

(١) رواه البخاري (١٣٩٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٩)، والنسائي (٢٥٢٢)، وأبو داود (١٥٨٤)، والترمذي (٦٢٥)، وابن ماجه (١٧٨٣).



والتدرّج في إبلاغ الناس مبادئ الدين وسلوك المنهج المرحلي أمر مطلوب، وهو الذي نقف عليه من أحداث السيرة المطهرة، فلا يليق بالداعية أن يطلب من كافر، أو ملحد ينكر وجود الله، أو مشرك يؤمن بالطاغوت، أو متشكك في الدين؛ لا يليق أن يطلب من واحد منهم أداء واجب من الوجبات التي لا تصح إلا بالإيمان، وهذا أمر قد يقع فيه بعض الدعاة الذين لم يدرسوا الوسط الذي يدعون الناس فيه.. إن من الواجب على الداعية أن يعلم حق العلم طبيعة المجتمع الذي يواجهه بالدعوة، وأن يبدأ بالأساسيات، وعليه أن يتجنب المنفرات.

عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلّى الله عليه وآله أنه قال: «يسرّوا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا». (١)

إن كثيراً من الأمور التي يصعب على الناس قبولها من دعوتنا لو بدأنا بها لنفروا منها، وأعرضوا عنها، ولكننا لو بدأنا بذكر محاسن طاعة الله ورسوله، وما أعدّ الله لمن يؤمن به ويعمل الصالحات من الثواب لاستجابوا لنا.

أجل يستجيب لنا هؤلاء الناس عندما تستقر الدعوة في قلوبهم وتعظم خشية الله عندهم، وتعظم الرغبة في الجنة.. وعندئذ يصبح ما كانوا يكرهونه حبيباً إلى نفوسهم.

(١) رواه البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤).



ومن الأمثلة على ذلك موقف الداعية في وسط ألف السفور والحسور والتبرج أو أَلِفَ الموسيقى والغناء.. لو بدأناهم بإنكار هذه المحرمات، وهي تستحق الإنكار لأعرضوا عنا وعن دعوتنا.. ولكننا لو أخرنا التعرض لها حتى نطمئن إلى أن إيمانهم أصبح قوياً، وأن الخوف من الله يملك عليهم تصرفاتهم، لاستجابوا لنا في إنكارها، وانقادوا إلى الحق راضين طائعين.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً. ^(١)

قال الأستاذ سيد قطب:

[لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة، وينشئ مجتمعاً، ويقيم نظاماً، والتربية تحتاج إلى زمن، وإلى تأثير وانفعال بالكلمة، وإلى حركة تترجم التأثير والانفعال إلى دافع، والنفوس البشرية لا تتحول تحولاً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب شامل للمنهج الجديد، إنما تتأثر يوماً بعد يوم وليلة بطرق من هذا المنهج، وتتدرج في مراقبه رويداً رويداً، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئاً فشيئاً، فلا تجفل كما تجفل لو قُدِّم لها ضخماً ثقيلاً

(١) رواه البخاري (٤٩٩٣).



عسيراً، وهي تنمو في كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح بالتالي أكثر استعداداً للانتفاع بالوجبة التالية، وأشد قابلية لها والتذاذاً بها^(١).

والتدرج في التشريع وسيلة من وسائل رعاية المجتمع الإسلامي والأخذ بيده، ومن أبرز الأمثلة على ذلك الآيات التي ذكر فيها الخمر. فلقد حُرِّمت بعد أن امتلأت نفوس المسلمين مخافةً من الله، ورغبة في ثوابه، وحباً في التزام هديه.

كان تحريم الخمر على مراحل كما هو معروف.

نزل أولاً قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

فلم تصرح الآية بطلب الكف عنهما، ولكنها اكتفت بذكر أن أثمهما أكبر من نفعهما، وفي ذلك تهيئة النفس لقبول ما سينزل من الآيات بحقها.

ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

وفي هذه الآية نجد المنع من الصلاة حالة السكر، ومعلوم أن المسلم مكلف بالصلاة في أوقات متقاربة لا يذهب خلالها أثر السكر، فكان ذلك سبباً في ترك شرب الخمر سحابة النهار، فكان الصحابة إذا صلوا العشاء سكر من أراد منهم السكر، وفي ذلك تدريب على تركها مدة

(١) "في ظلال القرآن" ٥ / ٢٥٦٢.



طويلة من يقظة الإنسان.

ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ
وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ
وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩٢﴾
[المائدة: ٩٠-٩١]. فانتهى المسلمون عن شربها، وأهرقوا ما في دورهم
منها. (١).

إنَّ على الداعية إلى الله أن يفيد من السيرة النبوية في دعوة الناس
فذلك أدعى إلى نجاحه في مهمته.

ويحسن بنا أن نورد حديث سيدنا عمر رضي الله عنه في تحريم الخمر.

روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر بن
الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في
الخمر بياناً شافياً فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ
الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ
مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

فدعي عمر، فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً،
فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

(١) انظر كتابنا "لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير" ص ٦٠ وما بعدها.



فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: أن لا يقربن الصلاة سكران، فدُعي عمر، فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في المائدة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

فدُعي عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا انتهينا. (١)

والآية التي تليها والتي فيها: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ هي: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

(١) رواه أحمد (٥٣/١)، وأبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٥٥٤٠).



التلطف والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة

ومن الدروس التي نقف عليها في قراءتنا للسيرة النبوية المطهرة (التلطف والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة).

لقد كان تلاففه ﷺ ورحمته لأتباعه، ودعوته الناس جميعاً بالحكمة والموعظة الحسنة شيئاً عظيماً ذا أثر واضح في استجابة الناس لدعوته. وهذه الأمور ينبغي أن يحققها الداعية في نفسه اقتداء برسول الله ﷺ الذي هو الأسوة الحسنة.

وقد أمر الله ﷻ نبيه محمداً ﷺ بذلك فقال تبارك وتعالى:

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وذكر ربنا ﷻ في وصفه ﷺ أنه رؤوف رحيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وذكر تعالى أنه ﷺ برحمة من الله لان لأتباعه وكان بعيداً عن الغلظة والفظاظة فقال سبحانه: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].



وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٥].

فانظر إلى هذا التلطف في الخطاب الذي علمه إياه ربه لعلهم يتفكرون ويعرفون من هو في الضلالة ومن هو على الهدى.. وقوله تعالى ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ.....﴾ فيه أيضاً تلطف في الدعوة ومبالغة في التواضع، حيث أسند الإجرام إلى أنفسهم، وأسند العمل إلى المخاطبين.

لقد كان ﷺ ليناً في تعامله رحيماً للناس.. كان كذلك مع الناس عامة، وكذلك كان في بيته.

أخرج ابن عساكر عن عمرة أنها قالت: قلت لعائشة: كيف كان رسول الله ﷺ في أهله؟ فقالت: (كان ألين الناس، وأكرم الناس، وكان ضحاكاً بساماً).^(١)

وهناك في سيرته عدد من المواقف كان فيها في غاية التلطف والحكمة وسعة الصدر، ومن ذلك موقفه من الرجل الذي قال له: إنه لا يقوى على ترك الزنا، وجاء يطلب منه أن يأذن له في ذلك، فلم يشتمه ﷺ، ولم يطرده، ولم يضربه، ولكنه ﷺ عالج هذا الإنسان

(١) ذكره ابن كثير في "البداية والنهاية" ٨/ ٤٨٣ طبعة هجر.



بأسلوب تربوي غاية في التأثير والنجاح، و لنورد القصة كما جاءت في كتب السنة:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ائذن لي في الزنا. فأقبل القوم عليه يزجرونه وقالوا: مه مه.

- فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ادنه»، فدنا منه قريباً فجلس.
- قال صلى الله عليه وسلم: «أتجبه لأمك؟». قال: لا والله جعلني الله فداءك.
- قال صلى الله عليه وسلم: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، قال: «أفتجبه لابنتك؟».
- قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك.
- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ولا الناس يحبونه لبناتهم».
- قال: «أفتجبه لأختك؟». قال: لا والله جعلني الله فداءك.
- قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم».
- قال: «أفتجبه لعمتك؟». قال: لا والله جعلني الله فداءك.
- قال: «ولا الناس يحبونه لعلماتهم». قال: «أفتجبه لخالتك؟».
- قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم».
- قال: فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه». فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.^(١)

(١) رواه أحمد (٢٥٦/٥)، والطبراني في "الكبير" ١٩٠/٨ (٧٧٥٩-٧٦٧٩)، والبيهقي في "شعب الإيمان" ٤٨/١٠ (٥٠٣٢)، وفي "السنن" ١٦١/٩، و"السلسلة الصحيحة" ١/١ برقم ٣٧٠.



هذا الحديث حديث صحيح، وفيه أسلوب في التربية رائع جداً.
فتى شاب يستأذن رسول الله ﷺ في الزنا.. ويبدو أن الشاب
يعرف أن الزنا حرام، ولكنه يريد أن يحصل على إذن من النبي ﷺ في
ممارسة هذه الفعلة المنكرة، ويبدو أنه شاب لا يحسن التصرف، فقد
سأل بصوت عال، وعلى مسمع من الصحابة الذين أنكروا عليه قوله،
وكان موقفهم منه الاستنكار والزجر، فقالوا له: مَهْ مَهْ. (١)
وحقَّ لهم أن يقفوا هذا الموقف، فكيف يجرؤ فتى مسلم على أن يطلب
من النبي ﷺ هذا الطلب؟

والزنا من أكبر الكبائر، وقد رتب الشارع الحكيم على فعله حداً
من الحدود، وهو جلد مائة جلدة وتغريب عام لغير المحصن، والرجم
حتى الموت للمحصن، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ
فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقد وصف الله تبارك وتعالى عباد الرحمن بأوصاف عدة منها
اجتناب الزنا وذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا
يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ
يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾
[الفرقان: ٦٨-٦٩].

(١) و(مَهْ): اسم فعل أمر بمعنى اكفف، والعامية في بعض البلاد تبدل الميم لاماً
فيقولون: له.



أما موقف النبي ﷺ فلم يكن منه إلا أن ناداه وقال: «ادن مني»، فدنا منه قريباً وجلس وأدار النبي ﷺ حواراً بينه وبينه، يدل على حلمه وسعة صدره وحكمته البالغة.

فسأله النبي ﷺ: «أتحب الزنا لأمك؟» فأجاب الفتى: لا والله جعلني الله فداءك. أجابه بصراحة وأدب وفداه بنفسه، فقال رسول الله ﷺ: «ولا الناس يحبونه لأمھاتھم».

إنَّ الناس مثلك لا يحبون هذا الفعل لأمھاتھم، ثم سأله: «أتحبه لابنتك؟» «أتحبه لأختك؟» «أتحبه لعمتك؟» «أتحبه لخالتك؟» والفتى يقول: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك.

وهذه الأجوبة تدل على سلامة فطرته، وعلى محبته لرسول الله ﷺ .. أجل إنَّ الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها لتكره هذا الفعل الشنيع .. كان هذا قبل أن يشوهها بعضهم بألغة المعاصي.

والرسول ﷺ يقول: «ولا الناس يحبونه لقربياتهم» .. والمؤمن لا يكتمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وحتى يكره لهم ما يكرهه لنفسه، فمن الظلم للناس أن يأتي المرء أمراً لا يجب أن يعامله الآخرون بمثله. قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (١).

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).



هذا نموذج سامٍ للتربية، وهو: أن نجعل المرء ينظر في الأفعال التي يقوم بها، أو يريد أن يقوم بها.. كيف يكون موقفه منها لو كانت صادرة من الآخرين موجهة إليه، ونتيجة هذا النظر أن يكف عن الإتيان بها إذا كان يكرهها، ويقوم بها إذا كان يحبها.

إنَّ هذا الأسلوب أسلوب جيد في تقويم النفس وتربيتها.. إنه مراجعة للنفس بشأن العمل قبل الإتيان به.. وهو يجعل المرء يأتي بالأمر الخيّر عن اقتناع واندفاع ذاتي، ويحجم عن الأمر السيئ عن اقتناع أيضاً وعزوف ذاتي، وهذا مستوى سامٍ من التربية.

وفي هذا الحديث درس مهم جداً: وهو أننا مطالبون - إذا أردنا أن نصل في تربيتنا لمن حولنا إلى نتيجة إيجابية - أن يتسع صدرنا لهؤلاء الذين نتولى تربيتهم ومطالبون ألا نقابلهم بالتوبيخ والتقريع والشتم والعنف.. فكل هذا لا يؤدي إلى نتيجة.. وما أروع قول النبي الكريم: «إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».^(١)

وقوله: «إنَّ الله رفيقٌ يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف».^(٢)

وهل هناك أشد إثارة من أن يأتي فتى إلى عالم أو داعية أو مربّب فيطلب منه مثل هذا الطلب؟

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٣).



ولكن الرسول العظيم ﷺ لم يثر كما ثار الصحابة، وكما يثور كثير من علمائنا اليوم لو ووجهوا بمثل هذا الطلب.. بل أسداه وقربه إليه، وحاوره وأقنعه.. وقد استقام أمر الفتى على الحق.. ولو كان الموقف غير ذلك لذهب الفتى في طريق الغواية إلى آخر مدى، ولكانت عاقبة أمره الهلاك.

والدعاء أمر مهم، فبعد أن انتهى الرسول ﷺ من هذا الحوار النافع الذي أجراه وضع يده عليه.. وفي هذه الحركة مزيد عناية بالفتى، وتودد إليه ثم دعا الله أن يغفر ذنوبه الماضية، ويطهر قلبه من الرغبات المخالفة للشرع ويحصن فرجه.

ودعاء النبي ﷺ مستجاب. قال الراوي: فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شيء.

ومن حوادث تطفه ﷺ بالمسلمين، واستيعابه لتصرفاتهم، ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة قصة الأعرابي الذي بال في المسجد في محضر من النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم، وجدير بالدعاة إلى الله أن يعوا هذه القصة، وأن يأخذوا منها دروساً في دعوتهم، وقد وردت بأسانيد صحيحة في الكتب الستة^(١) ومسند الإمام أحمد وغيرها.

(١) رواه أبو داود (٣٨٠)، والترمذي (١٤٧)، وابن ماجه (٥٢٩)، والنسائي (٥٣) - ٥٤ - ٥٦ - ٣٢٩ - ٣٣٠).



وقد رواها أنس رضي الله عنه، وأخرج حديثه البخاري ومسلم وغيرهما، ورواها أيضاً أبو هريرة رضي الله عنه، وأخرج حديثه البخاري وغيره من أصحاب السنن.

وقد أورد البخاري قطعة من القصة كما يأتي:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «دعوه وهريقوا على بوله سجلاً من ماء، فإننا بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» (١).

وأورد البخاري قطعة من القصة في كتاب الأدب كما يأتي:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال للأعرابي: «لقد حجرت واسعاً» يريد رحمة الله. (٢)

وأورد مسلم القصة نفسها عن أنس رضي الله عنه قال:

بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله: مه مه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تترموه دعوه» فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر، إنما هي لذكر

(١) روى البخاري قطعة من القصة في كتاب الوضوء (٢٢٠).

(٢) روى البخاري قطعة من القصة في كتاب الأدب (٦٠١٠).



الله ﷺ والصلاة وقراءة القرآن» أو كما قال رسول الله ﷺ. قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلوٍ من ماءٍ فثبته عليه. (١)

لقد كان رد فعل الصحابة على صنيع هذا الأعرابي أن قاموا إليه يزجرونه وينهونه عن هذا العمل القبيح بعنف، وحق لهم أن يفعلوا ذلك؛ لأنّ إنكار المنكر من أبرز صفاتهم، ولكن الرسول الرؤوف الرحيم قال لهم: «لا ترموه» أي لا تقطعوا عليه بوله، دعوه يكمل بوله، فتركوه. فلما انتهى ناداه وأدناه وبين له بلطف أنّ هذا العمل لا يليق أن يفعل في المسجد، وعذره لجهله، ثم بين له أن المساجد إنما هي لذكر الله ﷺ، والصلاة، وقراءة القرآن، ولا ينبغي أن تدنس بالبول أو الأقدار.

وسري عن الأعرابي بعد أن كان لقي الزجر والاستنكار من الصحابة ﷺ فدعا الله أن يرحمه والنبىّ محمداً وحدهما، وأن لا يرحم أحداً معهما، وكان ذلك في أثناء الصلاة ورفع صوته بذلك الدعاء .. فلما سلم النبىّ ﷺ بين له أنّ رحمة الله واسعة لا تحجر على عدد بل هي تسع الخلق أجمعين.

ثم أمر رجلاً أن يصب دلواً من الماء فوق الموضع الذي بال فيه الرجل، وقد فعل الصحابي ذلك، وقد دل هذا الصنيع على أن تطهير الموضع يكفي بأن يصب الماء فوقه.

(١) رواه مسلم (٢٨٥).



وفي هذا درس للدعاة أن يعذروا من كان جاهلاً بحكم من أحكام الشرع، وأن يتلطفوا معه ويعلموه، فذلك هو سبيل رسول الله ﷺ .. وعامة المسلمين في كثير من البلاد يجهلون الكثير من الأحكام الشرعية.

ومن ذلك ما رواه مسلم وأبو داود والنسائي^(١) عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال:

بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم تنظرون إلي؟

فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يسكتونني سكت. فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني^(٢) ولا ضربني ولا شمتني قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» أو كما قال رسول الله ﷺ... والحديث طويل.

لم يكن معاوية بن الحكم رضي الله عنه يعلم أن تكليم المصلي غيره من الناس في أثناء الصلاة محذور ومبطل لها، ذلك أنه كان الكلام في

(١) رواه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، والنسائي (١٢١٨).

(٢) الكهر: الانتهاز والقهر. كهره وقهره بمعنى.



الصلاة مباحاً إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَلْبَيْنِ ﴾ فنهوا عن الكلام فيها وأصبح من مبطلاتها.

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنا نتكلم في الصلاة، يكلم أحدنا أخاه في حاجته حتى نزلت ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَلْبَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فأمرنا بالسكوت. (١)

وجاء معاوية وصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين فعطس رجل، فقال له معاوية: يرحمك الله، فاستغرب الصحابة صنيعه، وصاروا يرمونه بأبصارهم، كلهم ينظر إليه مستنكراً.

فلما رأهم ينظرون إليه هذه النظرات الغاضبة الناقدة المنكرة تكلم مرة أخرى وهو في الصلاة قائلاً: ما لكم تنظرون إلي هذه النظرات؟ وماذا فعلت؟

فصاروا يضربون بأيديهم على أفخاذهم استنكاراً لكلامه، وطلباً منه أن يكف عن الكلام. فسكت وهو لا يدري لماذا وقف الناس منه هذا الموقف؟

وعندما سلم الرسول صلى الله عليه وسلم من صلاته دعاه وأدناه وكلمه بأسلوب لطيف ودود.. ولم ينتهره ولم يضربه.. وإنما بين له الحكم الشرعي في الكلام في الصلاة، وأنه لا يجوز فيها شيء من كلام الناس، وبين له أن الصلاة هي التكبير والتسبيح وقراءة القرآن.

(١) رواه البخاري (٤٥٣٤) ومسلم (٥٣٩).



ويعلق معاوية رضي الله عنه على ذلك قائلاً: بأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعد أحسن تعليماً منه.

إنَّ هذه القصة من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم درس للآباء والأمهات، والمعلمين والمعلمات، وللدعاة والداعيات، أن يستوعبوا تصرفات الآخرين، وأن يلتمسوا للمخطئين الأعذار، وألا يلجأوا إلى شتمهم أو توبيخهم .. بل ينبغي أن يسلكوا معهم سبيل التلطف بهم، ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة.



الحوار أحد طرق تقريره لحقائق الدين

إنَّ المتأمل في أحداث السيرة النبوية المطهرة لينتهي به التأمل إلى أنَّ رسول الله ﷺ كان يعمد إلى الحوار في تقريره لحقائق الدين، وفي دعوته الآخرين إلى الدخول في هذا الدين العظيم، ذلكم لأنَّ الحوار هو الأداة المجدية في الدعوة والإقناع.

وما أجدد الدعاة إلى الله أن يعوا هذه الحقيقة الدعوية .. أجل إنَّ من الصفات التي يحسن بالداعية أن يتحلَّى بها استخدامها الحوار في دعوته، الحوار مع الذين يريد أن يعلمهم، ومع الذين يريد أن يرببهم، ومع الذين يريد أن يدعوهم إلى ديننا الحنيف.

ولننظر إلى هذا النص القرآني المعجز الذي يلفت أنظار المخاطبين إلى نعم الله الوفيرة، ثم يأمر رسول الله أن يسألهم عدة أسئلة، ويذكر الجواب المتوقع، ثم يبيِّن عليه الموعظة المؤثرة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِيهِ وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ [المؤمنون: ٧٨-٨٠].

ثم قال: ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٧].



﴿ قُلْ مَنْ يَدِينَهُ مَلَكَوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٨٨] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿ [المؤمنون: ٨٨-٨٩].

وأمرنا الله عز وجل ألا نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَوَحْدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

إن الحوار بقصد الوصول إلى الحقيقة والتفاهم والإقناع يورث الود بين المتحاورين.

ويجب أن يتخلى المحاور عن رغبته في الغلبة وكسر عظم من يجاور، بل عليه أن تكون رغبته بيان الحق. يروى عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال: ما ناظرت أحداً إلا دعوت الله أن يظهر الحق على يديه.

إن هذه الروح لتجعل وقع كلامه على الآخر وقعاً محبباً مقبولاً لأنه لا يريد التغلب.. بل يريد الوصول إلى الحق.. وعليه أن يبدي استعداداً لقبول رأي الخصم إن تبين له صوابه، وتبين له خطأ رأيه.

ومن مقتضيات أدب الحوار أن نحمل كلام الآخر على المحمل الحسن ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، فإن هذا يجعل الآخر يراجع نفسه



ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه»^(١).

وإن على الداعية في حوارها أن يتحرى الدقة في الحكم، وأن يكون عادلاً مع الأصدقاء والأعداء. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وعليه أن يكون طرحه للأفكار مبنياً على دراسة لاستعداد الآخرين للقبول، وعلى معرفة الوسط الذي يتحرك فيه.

قال علي رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله». رواه البخاري معلقاً.

وقال عبد الله بن مسعود: (ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة).

وقد كان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يتخذ الحوار أداة تعليمية يلجأ إليها ليحرك أذهان السامعين في الموضوع الذي يريد أن يتحدث فيه حتى إذا انتهى أحدهم إلى نتيجة بسبب هذه الإثارة الذهنية تطلع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يصغي لحديثه ينظر: هل وفق إلى السداد؟

وتشارك في هذا التحفز كل قواه وطاقاته وأعصابه، وعندئذ يتمكن الجواب من نفسه أي تمكن، وتتجلى روعته بأجلى صورة.

(١) رواه مسلم (٢١٦٥).



وكانت للرسول ﷺ طرق في إثارة الحوار:

١- فمن هذه الطرق أن يأتي بجملة غريبة لأول وهلة، وقد تكون معارضة لما تعلم الصحابة من أحكام هذا الدين الجديد، فتستشير أسئلتهم، إنهم جيل مثالي زُبوا تربية إسلامية فاضلة، فهم لا يسكتون على أمر يرونه غريباً، أو متعارضاً مع ما فهموا من أحكام دينهم؛ ومن ذلك الحديث الآتي:

قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً».

فقال رجل: يا رسول الله. أنصره إذا كان مظلوماً، أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟ قال ﷺ: «تحجزه - أو تمنعه - من الظلم، فإن ذلك نصره». (١)

(انصر أخاك ظالماً) جملة غريبة أشد الغرابة، لا يمكن للفرد المسلم الذي ربي في مدرسة النبوة المحمدية أن يقر مثل ذلك، لأنه يراه معارضاً مع ما فهمه من أحكام هذا الدين الذي يحارب الظلم ويأباه، فلا بد من أن يثور في نفوسهم استغراب واستيضاح، فينطلق صوت رجل سائلاً بأدب وبجرأة أيضاً: أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟ وهنا يأتي التوضيح والبيان، فيستقر الجواب في النفس أتم استقرار.

(١) رواه البخاري (٢٤٤٣-٢٤٤٤).



وهذا حديث آخر: قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». قلت: يا رسول الله. هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال ﷺ: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». (١)

تقريره ﷺ أن المقتول في النار يثير الاستغراب لأول وهلة عند السامع فيحمله ذلك على السؤال، ويأتيه الجواب، ويتوَلَّد من ذلك كله حوار مركز جميل.

٢- ومن هذه الطرق أن يورد السؤال بشكل مشوق يرغبهم في أن يعرفوا الجواب، وذلك كأن يذكر لهم أمراً عظيماً، ومقصداً هاماً، وهدفاً مرجواً يسعى إليه كل مسلم، ثم بعد ذلك يورد السؤال ألا أدلكم عليه؟ ومن الطبيعي أن يكون الجواب من الصحابة: بلى. من ذلك الحديث الآتي:

قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط». (٢)

(١) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٢) رواه مسلم (٢٥١).



٣- ومن هذه الطرق أن يوجّه إلى الصحابة سؤالاً، ويستمع إلى أجوبتهم، ثم يناقشهم في هذه الأجوبة، ويبين لهم الصواب. ومن ذلك الحديث الذي أورده الإمام البخاري في صحيحه في بابٍ عنوانه (طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم): عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنما مثل المسلم، حدثوني ما هي؟». قال: فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبد الله: فوقع في نفسي أنها النخلة. ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: «هي النخلة»^(١).

ومن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتدرون من المفلس؟». قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إنَّ المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته.. فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه، ثم طرح في النار»^(٢).

(١) رواه البخاري (٦٢)، ومسلم (٢٨١١)، والترمذي (٢٨٦٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨).



٤- وهناك حوار كان يجري بين النبي ﷺ وبين أصحابه، وذلك لحرصهم الشديد على معرفة أحكام دينهم، ومن ذلك حديث أبي ذر رضي الله عنه الآتي: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال ﷺ: «الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله». قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: «أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً».

قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق»^(١). والأخرق الذي لا يتقن ما يحاول فعله.

وهكذا نرى أن الحوار أسلوب كان الرسول ﷺ يرتضيه ويعمل على إثارته؛ لما فيه من الحيوية والجمال والإقناع.

(١) رواه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤).



دور السيرة النبوية في انجاح عملية الاصلاح

إنّ لدراسة السيرة النبوية المطهرة ونشرها دوراً كبيراً في إنجاح عملية الإصحاح التي ينبغي أن يقوم بها الدعاة المصلحون.

أجل، إنّ مهمة الدعاة إلى الله هي محاولة العمل على عودة الناس إلى الدين الحق، والدين الحق هو الإسلام. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

ويومئذ يسعد المسلمون في حياتهم، وتعود إليهم العزة التي كتبها الله للمؤمنين. قال الله جل ثناؤه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقين: ٨].

ويتحقق لهم النصر الذي وعدهم به ربهم قال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَضَرُّوا اللَّهَ يَضُرُّكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقال جلّ جلاله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

إنّ نشر صفحات الماضي المجيد المترع بالبطولات من أهم وسائل بعث الأمة المتخلفة التي تعاني الضعف والفقر والهزيمة والهوان، ومن أفضل طرق بث الحياة في كيانها الضعيف وإيجاد اليقظة الواعية البناءة ورفض غبار التأخر والكسل.

إنّ تذكيرها بماضيها المشرق المبدع وإحياء بطولاته في أذهان ناشئتها وسيلة ناجعة في السعي لاستئناف السير في طريق استكمال ما بنى الآباء والأجداد.



وإذا أردنا أن ننظر نحن أبناء أمة الإسلام في أجداننا وبطولاتنا فلن نجد مثل السيرة النبوية في هذا المجال على الإطلاق.

ولذا فإنَّ على رجال الدعوة والإصلاح، وأرباب القلم في الأمة من الراغبين في الإصلاح أن يولوا السيرة النبوية ما تستحق من الاهتمام والرعاية، وأن يستقوا منها الدروس والعبر لاستئناف الحياة الإسلامية.. إن عليهم أن يقدموها للناس بأسلوب سائغ مؤثر جذاب في المحاضرات والخطب والدروس والمقالات والقصص والرواية وبوسائل النشر المختلفة.

إنهم بذلك يعملون على إقامة جيل مثالي يحب سيدنا محمداً رسول الله ﷺ ويطرسم خطاه .. جيل يشارك بني البشر في خصائصهم البشرية ولكنه يرتفع عنهم بمزاياه الكريمة .. إن هذا الجيل المرتقب ما أشد حاجتنا إليه نحن المسلمين .. وهو أيضاً أمل الإنسانية المرجو .. إنه مبتغاها وطلبتها اليوم إذ تحشى من الدمار الماحق الذي تتوقعه لتفاقم أسباب الفساد بأنواعه المتعددة.

إنَّ سيرة رسول الله ﷺ هي سيرة رجل أنقذ الدنيا من المظالم والمآسي التي كانت في ذلك الزمان وأحل محلها العدالة والإحسان.

يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات:

[فلما بُعث الرسول الكريم رحمة للعالمين بعث الحرية من قبرها، وأطلق العقول من أسرها، وجعل التنافس في الخير، والتعاون على البر،



والتفاضل بالتقوى، ثم وصل بين القلوب بالموأخاة، وعدل بين الحقوق بالمساواة، ودخل بين النفوس بالمحبة، حتى شعر الضعيف أنَّ جند الله قوته، والفقير أنَّ بيت المال ثروته، والوحيد أنَّ المؤمنين جميعاً إخوته، ثم مح الفروق بين أجناس الإنسان، وأزال الحدود بين مختلف الأوطان، فأصبحت الأرض كلها وطناً مشاعاً، والعالم كله أسرة متحدة، لا يهيمن على علائقها إلا الحب، ولا يقوم على مرافقها إلا الإنصاف وليس فيها بين المرء وخليفته حجاب، ولا بين العبد وربّه واسطة...^(١)

إنَّ حاجة أمتنا اليوم لتعاضم إلى استنطاق أحداث السيرة المطهرة لتستلهم منها العبر والحوافز.

أما العبر التي تستلهم من تاريخنا ومن السيرة خاصة فكثيرة كثيرة، ويمكن للمرء أن يقف عليها إذا وازن بين ذلك الماضي المشرق المتألق، وبين هذا الحاضر المؤلم المتخلف، أو إذا درس بموضوعية وإنصاف الأسباب التي أدت إلى هذا التخلف.

وأما الحوافز فهي كثيرة يمكن أن ينبه عليها المفكرون والدارسون ويغتنموا المناسبات التي تمر والذكريات التاريخية وما أكثرها.

ونحن بحاجة إلى تدبر هاتيك العبر، والاستجابة لتك الحوافز، لكي تستأنف أمتنا سيرها في طريق الإصلاح والإبداع وترسخ نهضتها على أسس متينة.

(١) "وحي الرسالة" ١/ ٢٢٣-٢٢٤.



لقد حملت أمتنا المجيدة رسالة الإسلام العظيم إلى الدنيا .. وكانت هذه الرسالة محررة مرشدة ببناء فعالة في تاريخ الإنسانية.

قال الأستاذ الزيات أيضاً:

[لله الحمد، ولنا المجد، لم تكن أمتنا من شيعة الظلام، ولا عصابة الخصام، ولا فرقة الهدم، إنما كانت خير أمة أخرجت للناس، أمرت بالمعروف، ونهت عن المنكر، وأعلنت كلمة الله، وبلغت رسالة الحق، وحملت أمانة العلم، هذا تاريخنا تتألق أيامه الغر في ظلام الماضي، كما تتألق الكواكب الزهر في حلك الليل، أرشدنا الضال فاهتدى، وحمينا الدليل فعزّ، وعلّمنا الجاهل فتعلم، ثم مكنا في أرضنا الفسيحة ودياننا العريضة لعناصر الجمال والخير، فقويت في كل نفس، وازدهرت في كل جنس، وانبعثت وانتشرت في كل أفق، وحققنا لهذا الإنسان - طريد العدوان، وعبد الطغيان - أحاديث أحلامه، وهو اجس أمانيه من الأخوة التي يعم بها النعيم، والمساواة التي يقوم عليها العدل، والحرية التي تخلص فيها المدارك، لأن رسالتنا لم يوحها الجوع ولا الطمع، وإنما أوحاها الذي خلق الموت والحياة، وجعل الظلام والنور، وأوجد الفساد والصالح، ليدرأ قوة بقوة وينقذ إنساناً بإنسان].^(١)

إنَّ الأُمَّة التي تتطلع إلى النهضة تُعنى بتمجيد ذكرياتها عناية كبيرة جداً وتسرع في هذه المرحلة بتسليط الأضواء على أبطالها العظماء في كل

(١) "وحي الرسالة" ٣٤٨/١.



مجال وعلى كل صعيد، ذلك لأن نشر تلك الصفحات المشرقة له دور كبير في حفز الهمم لبعث حياة الجد والاجتهاد والعمل الدؤوب لتعود لهذه الأمة مكانتها السامية بين الأمم.

ولا تملك أمة من أمم الأرض ما نملك من الأجداد والبطولات والفضائل.

إنَّ السيرة النبوية بالنسبة لنا - نحن المسلمين - ليست أمجاداً عظيمة فحسب، بل هي من السنة المطهرة التي هي المصدر الثاني مع كتاب الله للشريعة الإسلامية، ذلكم لأنَّ السنة كما يعرفها العلماء هي قول الرسول ﷺ وفعله وتقريره ووصفه، وكل ذلك تشمله السيرة النبوية.

إنها حياة الإنسان الرسول الذي أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور ومن الشرك إلى التوحيد، فدخلنا بسبب اتباعنا دينه التاريخ من أوسع أبوابه، وكانت لنا قيادة الدنيا، والسيادة على العالم المعمور، فأنقذنا الإنسانية من المهانة، ورددنا عليها كرامتها، وحررنا الناس من قيود الطغيان والأثرة والهوى.

إنها قصة حياة خاتم رسل الله وسيد بني آدم صلوات الله وسلامه عليه.

إنَّ على الدعاة أن يعرضوا أحداثها باعتزاز وأمل.
والله ولي التوفيق.





الفهرس

٥ تقديم
٧ مقدمة المؤلف
١١ الدعوة في السيرة النبوية
١٩ الدعوة والتربية والأمر بالمعروف
٢٢ القصة وسيلة من أهم وسائل الدعوة
٣٢ قائمة ببعض القصص التي وردت
٣٥ عظمة شخصية النبي ﷺ وتأثيره
٣٨ دور سيرة النبي ﷺ في نجاح الدعوة
٤٤ السيرة النبوية هي التطبيق الفعلي للشريعة
٥٠ المحاولة بشتى الطرق المتاحة للدعوة
٥٧ التخطيط
٦٢ التدرج في تبليغ أحكام الدين
٦٩ التلطف والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة
٨١ الحوار طريق لتقرير حقائق الدين
٨٩ دور السيرة في انجاح عملية الإصلاح
٩٥ الفهرس



الجانِبُ العَمَوِي فِي السِّيرَةِ النَّسَبِيَّةِ

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٠٩٠-٦٦-٤



هذا الكتاب منشور في

شبكة الألوكة
www.alukah.net